المجلة العربية للتيار الماركسي الأممي

الحرية والشيوعية

العدد 9

مجلة فصلية

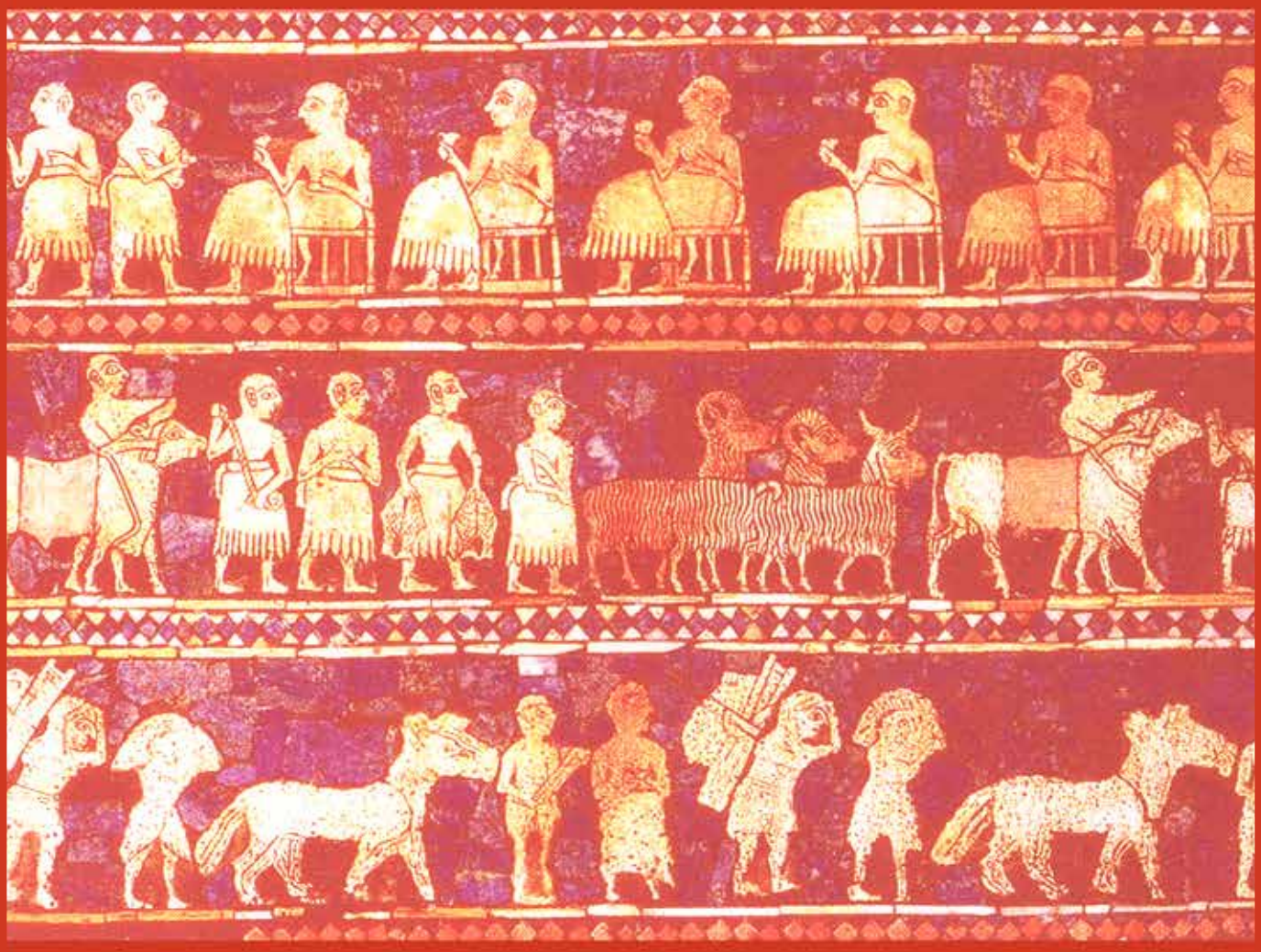

جذور المجتمع الطبقي

ص 15

العدد تاسع ❋ فبراير 2022 ❋ 2 دولار ❋ السعر التضامني 5 دولار ❋ https://www.marxy.com

أيتها الرفيقات أيها الرفاق،

ودعنا،

نحن عمال وشباب شمال افريقيا والشرق الأوسط، مثلنا مثل بقية عمال وشباب العالم، سنة 2021 التي كانت سنة صعبة مليئة بالأزمات والمآسي، واستقبلنا السنة الجديدة بتبادل المتمنيات بأن تكون أفضل من سابقاتها، مع أننا نعلم يقينا أنها ستكون سيئة مثل سابقتها، أو ربما أسوء.

معدلات الفقر والبطالة والمرض والقلق النفسي والتوترات والحروب... بلغت مستويات غير مسبوقة، حتى صارت الحياة لا تطاق بالنسبة لمليارات البشر. والمخاطر تمتد كذلك إلى البيئة التي نعيش فيها، إلى الهواء الذي نتنفسه والماء الذي نشربه وعشرات الأنواع من الحيوانات والحشرات التي تنقرض بشكل يومي، بعضها ينقرض حتى قبل أن نكتشف وجوده! كان صيف 2021 أسخن صيف تم تسجيله على الاطلاق، ولا يوجد أي مؤشر يبشر بإمكانية تغيير الوضع.

إلا أن الأسئلة التي يجب أن تطرح هي: لماذا هي حياتنا بهذا السوء؟ لماذا توجد كل هذه البطالة وكل هذا الفقر وكل هذه الحروب؟ لماذا هناك أغلبية ساحقة من البؤساء والجوعى، مقابل أقلية صغيرة من أصحاب الثروات الفاحشة؟ لماذا يستمر تدمير الغابات وتلويث البحار والهواء والتربة.... هل هذا حتمي، هل هذا قضاء وقدر؟ ألا يمكن أن يكون الوضع مختلفا؟

الطبقة السائدة ومفكروها ووسائل إعلامها يبذلون كل ما في مستطاعهم

معدلات الفقر والبطالة والمرض والقلق النفسي والتوترات والحروب... بلغت مستويات غير مسبوقة، حتى صارت الحياة لا تطاق بالنسبة لمليارات البشر

لكي يحرفوا انتباهنا عن هذه الأسئلة وعن البحث عن أجوبة عنها، سواء بنشر «ثقافة» التفاهة والإلهاء أو بتشجيع العدمية والأنانية المفرطة واللامبالاة.

بينما نحن الماركسيون، في المقابل، نبذل كل ما في مستطاعنا لكي نركز الانتباه على هذه القضايا الملحة ونشر الوعي الثوري وتقديم الإجابات التي تفضح السبب الرئيسي وراء كل تلك المآسي والفظاعات والشرور، أي: النظام الرأسمالي نفسه.

البطالة ليست قدرا حتميا، بل نتاج للنظام الرأسمالي ويمكن القضاء عليها بالقضاء عليه وبناء نظام اشتراكي مخطط بشكل عقلاني يقسم ساعات العمل الموجودة اجتماعيا على كل القادرين على العمل والمؤهلين له ! بهذه الطريقة، التي ليست مستحيلة ولا خيالية، لن يبق هناك من يعمل ساعات طويلة مقابل من لا يجد منصب شغل.

الفقر والمجاعات ليست قدرا حتميا، بل نتاج للنظام الرأسمالي. يكفينا أن نشير في هذا الصدد إلى أن الأزمة في ظل الرأسمالية، وبالتالي وجود الفقراء

البطالة ليست قدرا حتميا، بل نتاج للنظام الرأسمالي ويمكن القضاء عليها بالقضاء عليه وبناء نظام اشتراكي مخطط بشكل عقلاني يقسم ساعات العمل الموجودة اجتماعيا على كل القادرين على العمل والمؤهلين له

والجوعى، ليست نتاجا لقلة المنتجات الفلاحية والصناعية، بل تحدث عندما يكون هناك فائض في الإنتاج في كل شيء، أي أن هناك ملايين الجوعى والفقراء لأن هناك الكثير جدا من القمح والكثير جدا من المنتجات والملابس والخ. وبينما يتم التقتير على ميزانيات الخدمات الاجتماعية والصحة والتعليم، لأن الطبقة السائدة تعتبرهم عبئا وقطاعات غير منتجة (للربح)، لا تتوقف عن رفع ميزانيات التسلح والتجسس، أي ميزانيات المزيد من التخريب والقتل... يمكن وضع حد لكل هذا الجنون من خلال تطبيق سياسة اشتراكية في خدمة الأغلبية الساحقة، تقوم على الانتاج من أجل تلبية الحاجيات الحقيقية للمجتمع ككل.

كل الظروف الموضوعية والتقنية صارت متوفرة لكي نعيش في عالم خال من الفقر والجوع والاستغلال، في انسجام مع البيئة، وفي وئام عالمي بدون عنصرية ولا حروب ولا استعمار. العائق الوحيد الذي يقف في وجه هذا العالم ويمنعه من أن يولد هي كبار الرأسماليين وكلاب حراستهم في قيادات الجيش ووسائل الإعلام والأوساط الأكاديمية، الخ. والمفروض الآن هو تحطيم ذلك العائق بالثورة الاشتراكية واستيلاء الطبقة العاملة على السلطة والثروة ووضعهما تحت الرقابة الديمقراطية للمجتمع ككل.

لكن لكي يتحقق ذلك نحتاج إلى أكثر من مجرد متمنيات طيبة بسنة جديدة سعيدة. لكي يتحقق ذلك نحتاج إلى الانخراط في النضال من أجل بناء الحزب الثوري في بلداننا، يكون جزءا من الحزب العالمي للثورة الاشتراكية، والعمل الدؤوب على نشر الفكر الماركسي الثوري بين صفوف العمال والشباب الكادح الباحثين عن بديل ثوري.

في عصر الأزمة الرأسمالية البنيوية العميقة التي تجر البشرية إلى الهاوية، في عصر الثورات والثورات المضادة على الصعيد العالمي، تعتبر اللامبالاة جريمة والعدمية جريمة والإغراق في التفاهة هربا من الواقع جريمة. مهمة جيلنا هي إنجاز المهمة التاريخية العظيمة: مهمة التغيير الاشتراكي للعالم.

هذه هي القضية التي نناضل نحن، التيار الماركسي الأممي، من أجلها، وهذه هي القضية التي ندعوكم إلى الالتحاق بنا في النضال من أجلها. فلنجعلها سنة حمراء جديدة، سنة النضال من أجل الاشتراكية.

محتويات العدد

لقد رأيته في الأفلام ...	الصفحة 3
السودان ، لحظة الثورة الفارقة	الصفحة 7
الثورة السودانية في خطر	الصفحة 11
جذور المجتمع الطبقي	الصفحة 15
ذكرى معركة أنوال ... مذبحة المَلكية ورأس المال	الصفحة 31
لعبة الحبار ... لا فائزين في ظل الرأسمالية	الصفحة 35
لا تنظروا إلى أعلى ... لا تتركوا مهمة إنقاذنا لليبراليين	الصفحة 37
التيار الماركسي الأممي عام 2021 .. عام من النضال والكفاح!	الصفحة 39
لقاء السبت ... دراسة النظرية الماركسية	الصفحة 40

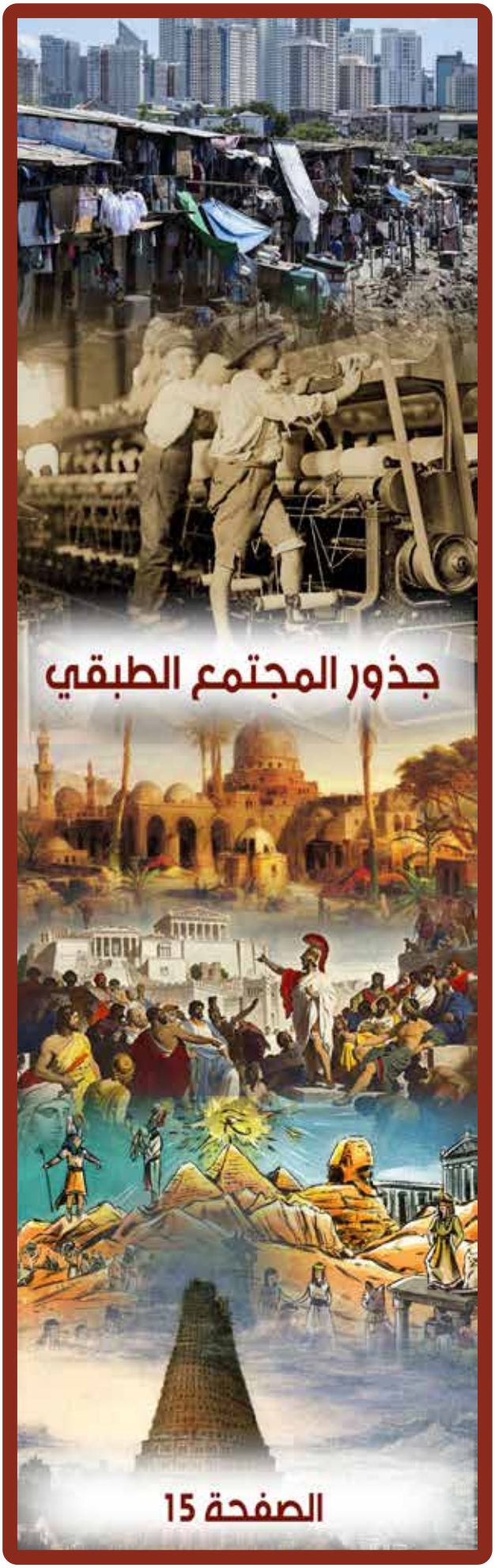

للتواصل مع التيار الماركسي الأممي في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، يمكنكم التواصل معنا على العناوين التالية:

البريد الإلكتروني لموقع ماركسي: contact@marxy.com

بريد موقع الدفاع عن الماركسية: contact@marxist.com

مجلة الشيوعية والحرية: communismliberty@marxy.com

زوروا مواقعنا: www.marxy.com و www.marxist.com/arabic.htm

وصفحاتنا على مواقع التواصل الاجتماعي:

فايسبوك: https://www.facebook.com/marxycom

تويتر: https://twitter.com/marxycom

اينستاغرام : https://www.instagram.com/marxy.imt

لقد رأيته في الأفلام

الرفيق آلان وودز يكتب عن العام الجديد 2022

مع مطلع عام 2022، شكلت عبارة "سنة سعيدة" كلمة فارغة لأغلبية الشعب، وذلك لأن أغلبية الشعب ليسوا سعداء على الإطلاق. خلال الأوقات العصيبة، في الماضي، كان الشعب يبحث عن العزاء في الدين. لكن في الوقت الحاضر، تقف الكنائس فارغة. وبدلا من ذلك صار الناس يميلون إلى اللجوء إلى حاناتهم المحلية، أو ربما دور السينما، والتي أصبحت شيئا يشبه أفيون الشعوب في عصرنا. لكن وبالنظر إلى أن العديد منها صارت مغلقة، فلم يعد للكثير من الناس مكان آخر يلتمسون فيه الراحة غير جهاز التلفزيون الخاص بهم.

في هذا الوقت من العام، تبهر شركات التلفزيون في جميع أنحاء العالم مشاهديها بمعاملة خاصة وهي التكرار اللامتناهي لأفلام هوليوود القديمة.

ونسبة كبيرة من هذه الأفلام القديمة لها طابع ديني صريح. إذ في مواجهة الانخفاض المقلق لمن يرتادون دور العبادة، من الواضح أن السلطات قد قررت تطعيم احتفالات نهاية العام ببعض العناصر الروحية من خلال جلب الله إلى منازلنا بواسطة المعجزة الحديثة التي هي جهاز التلفزيون.

هذه المعجزة أكبر بكثير من أي شيء يمكن للمرء أن يقرأه في الكتاب المقدس، الذي يخبرنا أن الله كائن غامض وغير مرئي، رغم أنه، في بعض الأحيان، وفقط في بعض الأحيان، يجعل نفسه متاحا لبعض الأفراد المختارين، وإن بشكل غير مباشر (عادة ما يكون منطوقا).

الرفيق آلان وودز محرر موقع Marxist.com

والآن، وبفضل سحرة هوليوود، تمكن ملايين الأشخاص من مشاهدة الله، الذي من الواضح أنه يشبه تشارلتون هيستون، الممثل المعروف للأدوار الدينية، والجمهوري اليميني، والرئيس السابق للجمعية الوطنية الأمريكية للبنادق.

إلا أنه أيا كان ذلك الإله الذي يؤمن به السيد هيستون، فهو بالتأكيد ليس إله السلام. فيوم 20 ماي 2000، خلال المؤتمر 129 للجمعية الوطنية الأمريكية للبنادق، حمل الممثل بندقية فلينتلوك، التي تعود إلى حقبة الحرب الثورية، وأعلن أنه إذا أرادت الحكومة مصادرتها منه، فسيكون عليها أن تنتزعها من "يديه الباردتين الميتتين".

وعندما ذهب، يوم 05 أبريل 2008، لمقابلة خالقه، في سن 84 عاما، كانت يداه دافئتان بما يكفي ليس فقط لحمل بندقية قديمة، بل أيضا بثروة محترمة تبلغ 40 مليون دولار.

«ورأى الله أنه من المربح جدا بيع أسلحة الدمار، وأن ذلك خير.

وقال الله: "السلام على الأرض، جيد للرجال".»

- لكن ليس كثيرا، لأنه سيء لقطاع الأعمال...

خطر الروبوت المجنون

ومن أجل إسعادنا بعد هذا الطوفان المروع من التدين، سارع أقطاب التليفزيون إلى معالجتنا بسلسلة لا حصر لها من أفلام الكوارث، حيث يتعرض العالم لخطر الدمار بطريقة مروعة أو بأخرى. ومن بين الموضوعات المتكررة في تلك الأفلام هو أن العالم سيتعرض قريبا لسيطرة الروبوتات.

لقد حلت الفكرة القائلة بأن الذكاء الاصطناعي يمثل تهديدا للبشر، وأن الآلات "الذكية" ستحل محل الرجال والنساء، محل تلك الموضوعات الأكثر سذاجة التي تجعل من الغول ومصاصي الدماء ووحوش فرانكنشتاين موضوعا لأفلام الرعب. لكن هذا ليس مجرد خيال -ناتج عن مخاوف النفسية البشرية- بل له قاعدة مادية حقيقية للغاية.

لا يُنظر إلى التقدم المذهل في العلم والتكنولوجيا على أنه نعمة، بل على أنه نقمة. كان من المفترض منطقيا أن تؤدي هذه التطورات إلى تقليص يوم العمل، وبالتالي خلق مستقبل يتم فيه استبدال العبودية بمزيد من الحرية، مما يتيح التنمية الكاملة لإمكانيات الناس.

لكن الواقع مختلف جدا.

لقد أوضح كارل ماركس منذ مدة طويلة أن إدخال آلة جديدة، في ظل الرأسمالية، يؤدي لا محالة إلى زيادة البطالة، وساعات عمل أطول لمن ما تزال لديهم وظائف. سيواجه ملايين العمال فقدان وظائفهم نتيجة الأتمتة والتكنولوجيا الجديدة التي ستجعلهم فائضين عن الحاجة.

تكمن المشكلة في أن قوى غير مرئية ولا يمكن السيطرة عليها قد سيطرت بالفعل على حياتنا ومصائرنا التي تواجه الآن تهديدا وجوديا، أخطر بكثير مما تعكسه أفلام المدمر والفك وفرانكنشتاين. وهذه القوى الخفية هي اليد الخفية للسوق.

في عالم المدمر (Terminator) المخيف، سيطرت "الأشياء" (الآلات، الروبوتات) على العالم وصارت تستعبد الناس. لكن هذا الكابوس الخيالي قد صار، في واقع الأمر، حقيقة بالفعل. في أيامنا هذه يتم اختزال الناس إلى مستوى الأشياء، بينما تسموا الأشياء (وخاصة المال) فوق مستوى البشر، وتصبح مطلقة القوة تهيمن على حياتنا وتحدد مصائرنا. في عالم الانحطاط الرأسمالي، ازداد الاغتراب إلى درجة لم يسبق لها مثيل في التاريخ.

في عالم المدمر (Terminator) المخيف، سيطرت "الأشياء" (الآلات، الروبوتات) على العالم وصارت تستعبد الناس. لكن هذا الكابوس الخيالي قد صار، في واقع الأمر، حقيقة بالفعل. في أيامنا هذه يتم اختزال الناس إلى مستوى الأشياء، بينما تسموا الأشياء (وخاصة المال) فوق مستوى البشر، وتصبح مطلقة القوة تهيمن على حياتنا وتحدد مصائرنا.

يدرك معظم الناس الآن أن عالمنا قد صار في الواقع يواجه خطر الدمار، لكن ليس من قبل أمثال المدمر (بأجزائه الثلاثة) أو بسبب سفن الفضاء الشريرة التي ترسلها قوى خبيثة من كوكب زوغ، بل بفعل خطر أقرب بكثير إلى أبوابنا.

الغيوم الداكنة تخيم على البشرية. وعوض التطلع إلى المستقبل بتفاؤل، يسيطر على الناس رعب متزايد من مستقبل العالم.

إن الخوف غير العقلاني من عالم تهيمن عليه كيانات غير إنسانية تستعبد الجنس البشري هو خوف في غير محله، لأن هذه الصور المزعجة هي في الحقيقة انعكاس صحيح للعالم الذي نعيش فيه بالفعل.

في الواقع ، نحن نعيش بالفعل في عالم المدمر. هذا المخلوق المرعب ليس سوى انعكاس مشوه في أذهاننا للواقع الذي يحيط بنا: عالم غريب وغير عقلاني لا يستطيع الناس فهمه.

في مثل هذا العالم، يتراجع التفكير العقلاني ويصبح العقل غير معقول. وكما قال لينين ذات مرة، فإن الذي يقف على حافة هاوية لا يمكنه أن يفكر بعقلانية. في مثل هذا العالم من الأفضل عدم التفكير على الإطلاق. ويعكس إفلاس الفلسفة البرجوازية الحديثة هذه الفكرة بشكل واضح، مثلما هو الحال في التفاهات الفارغة لما بعد الحداثة.

وبدلا من مواجهة المشاكل الحقيقية، نحن مدعوون للذهاب إلى السينما والقلق بشأن أن تأكلنا بعض أسماك القرش المسكينة التي ضلت طريقها ووصلت بالخطأ إلى الشاطئ حيث يسبح البشر. أو بشأن روبوتات مجنونة تستولي على السلطة، أو قوى غير مرئية تتحكم في حياتنا.

الفك، أو احذروا من أسماك القرش على الأرض

من الأشكال الشائعة لأفلام الكارثة، هناك الأفلام عن الحيوانات المتوحشة التي تجد متعة كبيرة (ومصدرا غنيا جدا بالبروتين) في التهام البشر الذين لا حول لهم ولا قوة.

ومن الأمثلة على ذلك سلسلة الأفلام الشهيرة الفك (Jaws)، والتي تلعب دور البطولة فيها سمكة قرش ذات حجم هائل ومستوى غير عادي من الذكاء، ترعب البشر المسالمين الذين يرغبون فقط في قضاء عطلة صيفية ممتعة على شاطئ جزيرة أميتي، قبالة سواحل نيو إنغلاند.

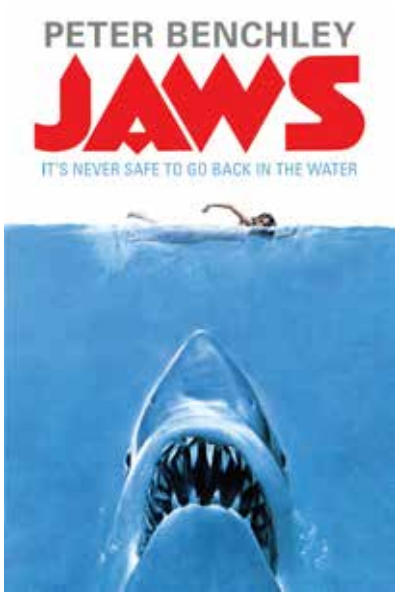

وفي النهاية، بعد العديد من المغامرات المرعبة، يتم التغلب أخيرا على الوحش الشرير. يشعر راكبو الأمواج بالسعادة، ويسعد أكثر وكلاء الأسفار وأصحاب الفنادق والعمدة. كل شيء بخير إذا انتهى بخير...

باستثناء سمكة القرش بالطبع، والتي باعتبارها الشرير في الفيلم تلقى فقط ما تستحقه، أليس كذلك؟ أم هو كذلك؟ أعتقد أن الشاعر كوليردج هو الذي قال إن الأدب هو "**التعليق الطوعي للكفر**"[1]. ويصدق هذا بشكل أكيد على أفلام هوليود. نحن مدعوون لترك حسنا النقدي أمام شباك التذاكر، وغالبا ما ينقلب تفكيرنا المنطقي رأسا على عقب.

دعونا نأخذ مثال فيلم الفك (Jaws). هل تعلمون كم عدد البشر الذين تهاجمهم أسماك القرش كل عام؟ تشير المصادر الرسمية إلى حدوث حوالي 441 هجوم مميت لأسماك القرش بين عامي 1958 و2019، وهو الرقم الذي قد يبدو كبيرا، لكنه لا يشكل في المتوسط سوى حوالي سبع حالات وفاة سنويا.

لكن كم عدد أسماك القرش التي قتلها البشر؟ اتضح أن البشر يقتلون ما يصل إلى 100 مليون سمكة قرش كل عام. وهذا يعني أنه يتم قتل 11.416 سمكة قرش في جميع أنحاء العالم كل ساعة. أي حوالي سمكتين إلى ثلاثة أسماك قرش في الثانية. وتستخدم جميع بلدان الصيد الرئيسية ممارسات صيد مدمرة مسؤولة إلى حد كبير عن انخفاض أعداد أسماك القرش في العالم بنسبة 70% على مدار الخمسين عاما الماضية.

إن النظام الرأسمالي يدمر كوكبنا بشكل منهجي، ويسمم الهواء الذي نتنفسه، والطعام الذي نأكله، والماء الذي نشربه. السباق المجنون وراء الأرباح من قبل الشركات العملاقة هو الذي يقضي على الغابات المطيرة في الأمازون، ويلوث المحيطات بالبلاستيك والمواد الكيميائية الضارة الأخرى. إنه يهدد أنواعا كاملة بالانقراض، ليس فقط أسماك القرش بل الجنس البشري نفسه.

اتضح أن البشر يقتلون ما يصل إلى 100 مليون سمكة قرش كل عام. وهذا يعني أنه يتم قتل 11.416 سمكة قرش في جميع أنحاء العالم كل ساعة.

الطاعون

قبل أسابيع قليلة على أعياد الميلاد، كانت الطبقة السائدة مبتهجة. كانت الصحف مليئة بالأخبار السارة. لقد انتصر العلم على فيروس كوفيد 19 الشرير. لقد عاد الجميع إلى طبيعته! يعيش اللقاح!

يذكرنا هذا بالشعار الشهير في فيلم الفك (الجزء الثاني):

«فقط عندما كنت تعتقد أنه من الآمن العودة إلى الماء...».

وكما قال برتولد بريخت ذات مرة: «**ذلك الذي يضحك لم يسمع بعد الأخبار السيئة**». لم يكد الحبر يجف على الصفحات الأولى للصحف حتى توجب عليهم تغيير العناوين الرئيسية. والآن يتوقع المحللون وفاة ملايين البشر الآخرين بسبب كوفيد 19 في عام 2022.

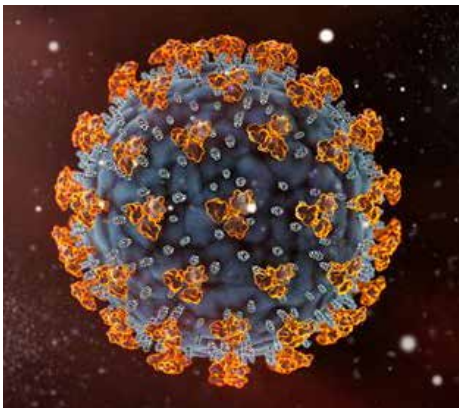

ظهرت المشكلة عندما برز متحور آخر مثير للقلق، أوميكرون، لأول مرة في جنوب إفريقيا. وفي غضون أسبوعين فقط انتشر المرض إلى جميع بلدان العالم تقريبا، وسرعان ما أصبح المتغير السائد في عدة بلدان، بما في ذلك بريطانيا والدنمارك والنرويج وأجزاء كثيرة من إفريقيا جنوب الصحراء.

لا يوجد شك في أن أوميكرون سيحل قريبا محل دلتا الذي يعتبر المتغير الذي يسبب حاليا معظم الحالات على مستوى العالم. وقد وجدت الدراسة الأولى المستندة إلى بيانات انتشار أوميكرون في بريطانيا أن كل إصابة تميل إلى إنتاج ثلاث إصابات أخرى على الأقل.

يشبه هذا السرعة التي انتشر بها كوفيد في أوروبا خلال الموجة الأولى للجائحة، في أوائل عام 2020، قبل توفر اللقاحات أو فرض الإجراءات المضادة. كان الرد الرسمي للعديد من الحكومات هو الادعاء بأنه على الرغم من انتشار السلالة الجديدة بسرعة مقلقة، فإنها أقل ضراوة من دلتا وأقل احتمالا للتسبب في مرض خطير أو الوفاة، خاصة إذا تم تطعيم الناس.

لكن ومهما كان الأمر، فإن هذا السيناريو الجديد له عواقب وخيمة على العالم بأسره في عام 2022. أخبار التفشي الجديد تسببت على الفور في حدوث انخفاضات حادة في أسواق الأسهم. لقد قلب كل الحسابات المتفائلة السابقة وأدخل مستوى جديدا من عدم اليقين ستكون له تداعيات سلبية، مما يعيق الاستثمار والنمو.

وحتى بدون هذا التطور الجديد، كانت آفاق عام 2022 قاتمة، مع انخفاض مستويات المعيشة وزيادة المصاعب بالنسبة لملايين البشر. والآن سيكون المنظور أسوء بكثير بالنسبة للأغلبية، في حين أن القطط السمينة تزداد سمنة طوال الوقت، وتصبح الهوة بين الأغنياء والفقراء هاوية لا يمكن رأبها. هذه وصفة كاملة لتفجر الصراع الطبقي في كل مكان.

لقد أدت الجائحة العالمية إلى فضح خطوط الصدع العميقة الموجودة في المجتمع. لقد فضحت بقسوة جميع عيوب الرأسمالية، العاجزة بنيويا عن خوض معركة جادة ضد الطاعون الذي يدمر حياة الملايين من الفقراء.

يكرر العلماء التأكيد على أن الطريقة الوحيدة لهزم الجائحة هي ضمان تلقيح كل رجل وكل امرأة وكل طفل على هذا الكوكب. لكن لماذا لم يتم ذلك؟

طالما سُمح للفيروس بالوجود في الأحياء الفقيرة في الهند، أو في قرى إفريقيا، فسيستمر في تطوير طفرات جديدة وأكثر خطورة من أي وقت مضى، والتي ستنتشر بسرعة في جميع البلدان، كما توضح ذلك حالة أوميكرون.

لقد أوجدت الإنجازات العظيمة للعلم والتكنولوجيا الحديثين الأساس المادي لبناء عالم جديد: عالم سيكون فيه الفقر والجوع والبطالة مجرد كوابيس من الماضي. إنها تقدم منظورا لتطور لامحدود للبشرية.

لطالما أكد الماركسيون بأن العائقين الأساسيين أمام التقدم البشري هما، من ناحية الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج (بمعنى الإنتاج من أجل الربح الخاص، وليس لتلبية احتياجات البشرية)؛ ومن ناحية أخرى ذلك الإرث الوحشي من بقايا البربرية، أي الدولة القومية.

لطالما أكد الماركسيون بأن العائقين الأساسيين أمام التقدم البشري هما، من ناحية الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج (بمعنى الإنتاج من أجل الربح الخاص، وليس لتلبية احتياجات البشرية)؛ ومن ناحية أخرى ذلك الإرث الوحشي من بقايا البربرية، أي الدولة القومية.

إن ضرورة خطة إنتاج اشتراكية وتخطيط أممي صارت أكثر ملحاحية، وذلك لسبب بسيط هو أن الفيروسات لا تعترف بالحدود الوطنية. فإذا لم تتم إزالة هذه العقبات بالوسائل الثورية، وإلى أن تتم إزالتها، لا يمكن إيجاد حل للمشاكل الأكثر إلحاحا لكوكبنا.

الحل في أيدينا.

الفضاء، الحدود الجديدة

يوم عيد الميلاد ظهر دليل آخر على الإمكانات الهائلة للعلوم والتكنولوجيا، وذلك عندما غادر تلسكوب جيمس ويب الأرض في مهمته لاستكشاف المناطق النائية في الكون.

تلسكوب جيمس ويب

تلسكوب ويب هو خليفة تلسكوب هابل. لكنه أقوى بكثير من سابقه، أقوى 100 مرة على وجه الدقة. وهذا مهم لأسباب عديدة، لكن ربما يكون الأهم من ذلك كله هو حقيقة أن التلسكوب الجديد سيكون قادرا على اختراق أبعد مناطق الكون المعروف، وبالتالي القدرة على النظر إلى ماض بعيد جدا.

هذا يعني أنه سيكون قادرا على نقل صور للفترة التي يُقال إن النجوم الأولى قد أنهت فيها الظلام الذي، وفقا للنظريات السائدة، غلف الكون بعد فترة وجيزة من الانفجار العظيم، الذي من المفترض أن يكون قد حدث قبل 13,8 مليار سنة.

تم طرح النموذج الكوني الأكثر قبولا على نطاق واسع، والذي يسمى النموذج التضخمي، لأول مرة في أواخر السبعينيات من أجل تفسير التناقضات الموجودة في النظريات السابقة. وهو يؤكد أن الكون قد ولد في انفجار هائل للمادة والطاقة ملأ الكون بأسره في جزيء صغير من الثانية.

يقول عالم الفيزياء الفلكية بجامعة هارفارد، روبرت ب. كيرشنر: «لقد كانت لفكرة التضخم تأثير هائل. ولم يتم العثور على أي ملاحظة تثبت أنها خاطئة». لكنه يضيف: «هذا لا يعني، بالطبع، أنها صحيحة».[2]

في الواقع ما تزال هناك العديد من المشاكل الجدية التي تواجه هذه النظرية، ليس أقلها حقيقة أنها تتعارض مع أحد أكثر قوانين الفيزياء أساسية: أي أن المادة لا يمكن إنشاؤها أو تدميرها.

إن القانون القديم: ex nihilo nihil fit (لا شيء يأتي من العدم) يمثل حجر عثرة خطير أمام أولئك الذين يؤكدون أنه قبل الانفجار العظيم لم يكن هناك أي شيء، لا طاقة ولا مكان ولا زمن. لكن من أجل حدوث مثل ذلك الشيء، ستكون هناك حاجة إلى كميات لا يمكن تصورها من الطاقة. والسؤال هو من أين أتت كل تلك الطاقة؟

لا يمكن أن يكون هناك سوى تفسير واحد فقط، وهو تفسير سيأخذنا بعيدا عن عالم العلم إلى العالم الغامض للدين. ولن يكون أكثر ولا أقل من نسخة حديثة من أسطورة الخلق، كما عبرت عنها الكلمات الأولى من سفر التكوين:

«في البدء خلق الله السماء والأرض».

ليس من قبيل المصادفة أن الكنيسة قبلت بنظرية الانفجار العظيم، ولا في أن النسخة الأصلية لها كانت من اخترع القس الكاثوليكي الروماني جورج لوميتر. إلا أنه لدينا الآن أخيرا إمكانية الحصول على دليل واضح لا يمكن دحضه عن مدى صحة النظرية الحالية، والذي هو الدليل الوحيد المهم حقا: دليل الملاحظة الفعلية. ولا شك أن رجال الفاتيكان سيراقبون النتائج باهتمام، كما سيفعل الماركسيون، لكن من وجهة نظر معاكسة.

من المستحيل تحديد ما ستكشفه تلك الملاحظات. من الممكن جدا أن يكون هناك نوع من الانفجار، أو، في الحقيقة، العديد من الانفجارات. لكن ما لن يروه هو بداية الزمن والمكان والمادة، والتي ليس لها بداية ولا نهاية. وما سوف يرونه، بدلا من ذلك، هو كون من النجوم والمجرات، يمتد إلى ما لا نهاية.

هذا ما أؤمن به بعمق بصفتي ماديا. لكن من يدري؟ قد أكون مخطئا.

ربما سيرون فعل الخلق كما هو موصوف في سفر التكوين. ومع قليل من الحظ، قد يتمكنون حتى من إلقاء نظرة خاطفة على الإله الخالق نفسه، وهو يعمل بجد لخلق كل شيء من لا شيء في لحظة.

عندها سأضطر إلى القيام بتنبؤ آخر، وهو أن ذلك الكائن الأسمى سيكون بلحية بيضاء متدفقة ويشبه بشكل مذهل تشارلتون هيستون. ولن نواجه أي مشكلة على الإطلاق في التواصل معه، لأنه يتحدث الإنجليزية بطلاقة، وبلكنة أمريكية.

كيف لي أن أعرف ذلك؟

الجواب سهل جدا!

لقد رأيته في الأفلام.

لندن 02 يناير/كانون الثاني 2022

حاشية

وأخيرا: ها هي بعض الأفكار للعام الجديد:

لو كانت أسماك القرش بشرا، بقلم برتولد بريخت

سألت الابنة الصغيرة لمالك العقار السيد ك، قائلة: «لو كانت أسماك القرش بشرا، هل كانت ستكون ألطف مع الأسماك الصغيرة؟».

أجاب: «بالتأكيد، لو كانت أسماك القرش بشرا، لكانت ستبني صناديق ضخمة في المحيط للأسماك الصغيرة، مع جميع أنواع الطعام بداخلها، طعام نباتي وحيواني. ستحرص على أن تحتوي الصناديق دائما على مياه عذبة، وستتخذ عموما جميع التدابير الصحية اللازمة. فإذا ما أصابت إحدى السمكات الصغيرة زعنفتها، على سبيل المثال، ستقوم أسماك القرش بعلاجها، على الفور، حتى لا تموت وتفقدها أسماك القرش قبل الأوان. ولكي لا تصاب الأسماك الصغيرة بالحزن، ستقام احتفالات مائية كبيرة من وقت لآخر، لأن مذاق الأسماك السعيدة ألذ من مذاق الأسماك الحزينة.

بطبيعة الحال، ستكون هناك أيضا مدارس في تلك الصناديق الضخمة. وفي تلك المدارس، ستتعلم الأسماك الصغيرة كيف تسبح نحو فكي القرش. ستحتاج، على سبيل المثال، إلى معرفة الجغرافيا حتى تتمكن من إيجاد أسماك القرش الكبيرة، التي ترقد بكسل في مكان ما. ستكون المادة الرئيسية، بالطبع، هي التربية الأخلاقية للأسماك الصغيرة. سيتم تعليمها أن أفضل وأجمل شيء في العالم هو إذا ضحت الأسماك الصغيرة بنفسها بسعادة، وأن عليها جميعا أن تصدق أسماك القرش، خاصة عندما تقول لها هذه الأخير إنها تصنع لها مستقبلا جميلا. سيتم تعليم الأسماك الصغيرة أن هذا المستقبل غير ممكن إلا إذا تعلمت الطاعة. يتوجب على الأسماك الصغيرة أن تحذر، على وجه الخصوص، من جميع التيارات المادية والفردانية والماركسية، وإذا اتضح أن إحداها تتبنى مثل تلك النزعات، فسيتعين على الأسماك الأخرى إبلاغ أسماك القرش بذلك على الفور.

لو كانت أسماك القرش بشرا، لكانت بالطبع ستشن حروبا ضد بعضها البعض، من أجل غزو الصناديق الأخرى والأسماك الصغيرة الأخرى. ستشن أسماك القرش الحروب بأسماكها الصغيرة. وسوف تعلم أسماكها الصغيرة أن هناك فرقا هائلا بينها وبين الأسماك الصغيرة التي تنتمي إلى أسماك القرش الأخرى. سيعلنون أن الأسماك الصغيرة معروفة جيدا بأنها غبية، لكنها صامتة بلغات مختلفة تماما، وبالتالي لا يمكن لأحدها أن يفهم الآخر. وستحصل كل سمكة صغيرة تمكنت في الحرب من قتل سمكتين صغيرتين أخريين، من أسماك العدو، الصامتة بلغتها الخاصة، على ميدالية صغيرة مصنوعة من الأعشاب البحرية وستمنح لقب بطل. لو كانت أسماك القرش بشرا، لكان بالطبع هناك فن أيضا. ستكون هناك صور جميلة، يتم فيها تصوير أسنان أسماك القرش بألوان رائعة وتصوير فكها كحدائق للمتعة الخالصة، حيث يمكن للمرء أن يتجول بسعادة. ستُظهر مسارح قاع البحر الأسماك الصغيرة وهي تندفع بحماس بطولي إلى فكي أسماك القرش، وستكون الموسيقى جميلة جدا لدرجة أنه بتأثير نغماتها، ستتدفق الأسماك الصغيرة، تقودها الأوركسترا، إلى فك أسماك القرش حالمة ومخدرة بأفكار لطيفة.

لو كانت أسماك القرش بشرا، فسيكون هناك أيضا دين، من شأنه أن يعلم الأسماك الصغيرة أنها لا تبدأ حقا في العيش بشكل صحيح إلا بعد أن تصير في معدة أسماك القرش.

وعلاوة على ذلك، لو كانت أسماك القرش بشرا، فلن تبقى الأسماك الصغيرة متساوية، كما هو الحال الآن. ستُمنح للبعض مناصب مهمة وتوضع فوق الأخريات. بل وسوف يسمح لتلك الأكبر بقليل بتناول الأسماك الأصغر. وسيكون ذلك ملائما تماما لأسماك القرش، لأنها هي نفسها ستحصل غالبا على النصيب الأكبر. وستعمل الأسماك الصغيرة الأكبر، التي تشغل مناصبها، على ضمان النظام بين الأسماك الصغيرة، فتصبح أساتذة وضباطا ومهندسين لبناء صناديق الأسماك، إلخ.

وباختصار، سيبدأ البحر في التحضر لو كانت أسماك القرش بشرا».[3]

4 يناير/كانون الثاني 2022

— — — —

هوامش:

1: "التعليق الطوعي للكفر" مصطلح استعمله الشاعر الانكليزي صموئيل تايلور كولريدج وقصد به تجنب المرء، بشكل متعمد، للتفكير النقدي في موضوع ما (عمل أدبي، مسرحي، الخ)، من أجل تصديقه لتحقيق المتعة. المترجم.

2: National Geographic News, 25 April 2002

3: Excerpts from Stories of Mr Keuner

السودان لحظة الثورة الفارقة

الرفيق محمد حسام

إن الثورة السودانية تمر من لحظة فارقة، إن إجرام الطغمة العسكرية يهدف ليصل للحدود القصوى، ويستمر في الازدياد، إن هؤلاء المجرمين مصرين على سحق الثورة ودهس الجماهير، أنهم يرون أن السبيل الوحيد لبقائهم في السلطة بل ولبقائهم على قيد الحياة هو هزيمة الثورة السودانية، وهم محقون في ذلك. إننا في وضع المعادلة الصفرية، لا وجود لهامش مناورة أو خطأ أو حلول مرتعشة أو مجال لإضاعة الوقت، إما أن نجد وسيلة للمضي قدماً للأمام وننتصر، وإما أن هؤلاء السفاحين سوف يعملون على دهسنا.

أخطاء القادة الإصلاحيين

لا وقت للحلول المرتعشة والخطاب المرتعش. السبب الرئيسي لمأزق الثورة السودانية هو أخطاء القادة، يجب أن نكون واضحين بخصوص هذه المسألة. الصديق الأمين هو من يقول للمرء الأشياء والحقائق كما هي، يجب أن نواجه أنفسنا بأخطائنا، لكي نعمل على تصحيحها.

الطبقة العاملة والجماهير السودانية فعلت كل ما هو مطلوب منها أن تفعله، واجهت رصاص وقمع وإجرام المليشيات والقوات النظامية، في مناسبة بعد أخرى أبانت الجماهير عن طاقة مهولة من الكفاح والتضحية، وفي كل مرة تتخاذل القيادة عن الجماهير أو تخونها، بداية من اتفاقية الخيانة لتقسيم السلطة، عندما كان من الممكن أن تستولي الجماهير بقيادة الطبقة العاملة على السلطة، ووصولاً لليوم. في كل الأحداث تبين أن حركة الجماهير تتجاوز هؤلاء الموجودين في القيادة، كما يقول المثل "أسودٌ يقودها حمير".

منذ أن تولى عبد الله حمدوك رئاسة الوزراء نبهنا إلى أنه لا يجب على الجماهير أن تثق في الليبراليين، ودعونا القوى الثورية إلى العمل من أجل إسقاطه، وحذرنا من مغبة الأوهام حول إمكانية تحييد العسكريين، وأن هؤلاء المجرمين لا سبيل أمامهم إلا العمل على سحق الثورة، وأثبتت الأحداث صحة قراءتنا للواقع وصحة توقعاتنا.

ثم حدث انقلاب عسكري دموي نفذه جنرالات مجرمين ضد رئيس وزراء ليبرالي، عبد الله حمدوك، عارضته الجماهير والطبقة العاملة بكل بسالة ولكن للأسف يقف اليوم على رأس الحزب الشيوعي وتجمع المهنيين السودانيين قيادة إصلاحية يسارية مرتعشة لا رغبة لها بالكفاح وتهدف إلى الوصول لحلول وسط مع الأعداء. عندما قام عبد الفتاح البرهان بانقلابه الأخير، قلنا إنه ينبغي العمل من أجل إسقاطه وتأسيس سلطة الطبقة العاملة والجماهير، وأن على الطبقة العاملة والجماهير أن لا تثق إلا في قواها الذاتية، وأن على القيادة أن تجهز الطبقة العاملة والجماهير لذلك. هذا ما كان يجب أن يفعله الحزب الشيوعي السوداني لكي يستحق اسمه وانتمائه لتراث البلاشفة.

الطبقة العاملة والجماهير السودانية تحركت لمواجهة الانقلاب الدموي بحس ثوري وطبقي سليم، هم يعلمون أن الجنرالات عزلوا عبد الله حمدوك ليس لمصلحتهم بل لتأسيس سلطتهم العسكرية الخاصة، لكن قيادة الثورة اكتفت بإصدار بيانات الشجب والإدانة ودعوة الأمم المتحدة للتدخل، ثم دعوة الجماهير المعبأة اصلاً للتعبئة، بدون توفير أي خطة لكيفية الانتصار سوى الخطابات البليغة الرنانة.

بدلاً من الدعوة لتشكيل جبهة عمالية وثورية لمواجهة الانقلاب والاستعداد للاستيلاء على السلطة، اكتفى القادة بدعوة القوى "التقدمية" و"الديمقراطية" للوحدة ضد الانقلاب غير "الشرعي" وغير "الدستوري"، وتصوير أن هذا خطأ عبد الله حمدوك كشخص، رغم أن هذا شيء متأصل في الليبراليين، لم يكن من المأمول من حمدوك غير ما فعله، بالتالي كان مصيرا لا يمكن تلافيه، سواء كان عبد الله حمدوك أو أي حثالة ليبرالية أخرى هي من تتولى رئاسة الوزراء، المؤسف أن عبد الله حمدوك تم عزله بواسطة الجنرالات الدمويين وليس بواسطة الجماهير.

مصدر الصورة : موقع الاندبندنت العربي

واليوم استقالة عبد الله حمدوك هي تعبير عن عجزه لعب نفس الدور الذي كان يلعبه منذ إسقاط عمر البشير، لقد أدرك أنه فقد كل مصداقيته في أعين الجماهير ولم يعد باستطاعته خداعها، إن هؤلاء يخافون الجماهير وثورتها أكثر من خوفهم من الجنرالات، يدركون أنهم يستطيعون أن يصلوا لاتفاق مع الجنرالات ليلعبوا أدوارا مفيدة للطبقة السائدة ككل في بعض الأوقات، ولكنهم لا يستطيعون أن يصلوا لاتفاق مع الجماهير الثورية التي يتعارضون مع مصالحها بشكل كامل، خصوصاً عندما يسقط قناعهم الصديق للجماهير.

لم يكن من المأمول من حمدوك غير ما فعله، بالتالي كان مصيرا لا يمكن تلافيه، سواء كان عبد الله حمدوك أو أي حثالة ليبرالية أخرى هي من تتولى رئاسة الوزراء، المؤسف أن عبد الله حمدوك تم عزله بواسطة الجنرالات الدمويين وليس بواسطة الجماهير.

بـدلاً مـن محاولـة تصويـر الـصراع أنـه صراع بـين "الأخيـار" و"الأشرار" كان ينبغـي عـلى القـادة أن يشرحـوا ويوضحـوا أن الـصراع هـو صراع طبقـي بـين المسـتغلين ومـن يسـتغلونهم، بـين القامعـين والمقموعـين، وأن لا سـبيل إلا بتحالـف الطبقـة العاملـة والفلاحـين الفقـراء وفقـراء المـدن لمواجهـة العسـكريين والليبراليـين البرجوازيـين الخونـة، لا سـبيل إلا تنظيـم الجماهـير عـلى أسـس طبقيـة لمواجهـة الانقـلاب والاسـتعداد لإرسـاء السـلطة الجماهيريـة البديلـة، سـلطة العـمال والفلاحـين الفقـراء.

لا ثقة في الأحزاب الليبرالية والبرجوازية!
من أجل قيادة ثورية للثورة السودانية!
من أجل خطاب طبقي وثوري!
من أجل تحالف الطبقة العاملة والفقراء!

حول السلمية والعنف الثوري

إن عنـف الثـورة المضـادة أظهـر ضرورة الدعوة لتسـليح الجماهـير والعمل من أجـل تنظيـم ذلـك التسـليح، وهـو مـا يظهـر ايضـاً ارتعـاش القيـادة وعـدم قابليتها للكفـاح حتـى النهايـة. إن رفـض قـادة الثـورة تسـليح الجماهـير وإصرارهـم عـلى دعـوات "السـلمية" هـي واحـدة مـن أكـبر نقـاط ضعـف الثـورة.

إن الماركسـيين لا يتناولـون مسـألة العنـف مـن منطلـق "أخلاقـي" أو "إنسـاني" مجـرد وإنمـا مـن منطلـق ثـوري وطبقـي وطبقـاً للظـروف الموضوعيـة. العنـف الثـوري في ظـروف معينـة يصبـح ضرورة، بـل احيانـاً يشـكل الفـارق بـين الانتصـار والهزيمـة.

لينـين تنـاول مسـألة العنـف الثـوري في أكـثر مـن مناسـبة، وأوضـح أن عـلى الماركسـيين أن يجابهـوا عنـف الطبقـة السـائدة بعنـف الطبقـة العاملـة والجماهير، ليـس بالدعـوات "السـلمية" السـاذجة وليـس بعنـف مجموعـة مـن المحاربـين المعزولـين عـن الجماهـير. التاريـخ الطويـل لحـرب العصابـات وأهوالهـا المسـتمرة حتـى اليـوم داخـل السـودان يمثـل عقبـة أمـام تلـك الدعـوة، لكـن الدعوة لتسـليح الجماهـير مختلفـة تمامـاً عـن حـرب العصابـات المعتمـدة عـلى فـرق المقاتلـين في الجبـال والصحـاري المنظمـة عـلى أسـس إثنيـة أو دينيـة أو قوميـة وتتلقـى دعـم دول الجـوار، كـما هـو الحـال في السـودان في العقـود الماضيـة.

مـن السـخافة الاعتقـاد أنـه يمكـن ردع إجـرام الطغمـة العسـكرية والطبقـة السـائدة بالصـدور العاريـة والدعـوات السـلمية السـاذجة، أو دعـوة القـوى الإمبرياليـة للتدخـل والضغـط مـن أجـل وقـف عنـف الطبقـة السـائدة، إن هـؤلاء الإمبرياليـين غـير مبالـين بحيـاة الجماهـير السـودانية، إنهـم يكتفـون بتحذيـر الطبقـة السـائدة أن العنـف المفـرط قـد يخـرج الأمـور عـن السـيطرة، وهـو مـا لا يرغبـون فيـه. إن رفـض تجمـع المهنيـين السـودانيين لمبـادرة الأمـم المتحـدة وإصرارهـم عـلى إسـقاط الحكـم العسـكري هـو موقـف سـليم، لكـن مـن أجـل وضـع هـذا الرفـض موضـع التطبيـق عـلى الأرض يجـب أن يتبعـه بخطـة حقيقيـة للمـضي للأمـام، لإسـقاط سـلطة الجنـرالات التـي تهـب اليـوم الإمبرياليـة والإقليميـة لنجدتهـا.

إن الدعـوة لتسـليح الجماهـير ليسـت دعـوة لبـدء حـرب أهليـة، إن الحـرب الأهليـة قـد بـدأت بالفعـل لكـن مـن جانـب واحـد، بـل هـي دعـوة لوقـف الحـرب الأهليـة، دعـوة لوقـف المذبحـة الجماهيريـة، لا سـبيل لوقـف عنـف الطبقـة السـائدة إلا بتسـليح الجماهـير مـن أجـل الدفـاع عـن نفسـها، مـع دعـوة الجنـود وصغـار الضبـاط للانضـمام لصـف الثـورة. إن الطبقـة السـائدة لـن تتخـلى عـن السـلطة والـثروة بمـلء إرادتهـا، ولـن تتـوانى عـن اسـتخدام أقـصى درجـات العنـف والوحشـية للحفـاظ عـلى سـلطتها وثرواتهـا، كـما بينـت الأحـداث.

إن مسـألة التسـليح والعنـف الثـوري هـي مسـألة حيـاة أو مـوت بالنسـبة للجماهـير السـودانية في الشـوارع اليـوم. عـلى القـادة في تجمـع المهنيـين السـودانيين والحـزب الشـيوعي السـوداني ولجـان المقاومـة والنقابـات العماليـة أن يطلقـوا دعـوة للجماهـير بـأن تدافـع عـن نفسـها بـأي وسـيلة تحـت أيديهـم، ودعـوة لجـان المقاومـة لتنظيـم الجماهـير للدفـاع عـن الأحيـاء السـكنية ضـد هجـمات المليشـيات والقـوات النظاميـة، ودعـوة الطبقـة العاملـة لتنظيـم فـرق للدفـاع عـن أماكـن العمـل.

لينـين وجـه دعـوة للجماهـير الروسـية عـام 1905 بـأن يحملـوا المقـالي والمكانـس والسـكاكين والمسدسـات وأي أداة تقـع تحـت أيديهـم للدفـاع عـن أنفسـهم. تلـك هـي الدعـوة التـي يجـب توجيههـا للجماهـير اليـوم، والتـي يجـب أن تعمـل لجـان المقاومـة وتجمـع المهنيـين السـودانيين والنقابـات العماليـة والحـزب الشـيوعي السـوداني عـلى تنظيمهـا، مـع توجيـه خطـاب طبقـي وثـوري إلى الجنـود وصغـار الضبـاط، الذيـن أظهـروا أنهـم عـلى اسـتعداد للانضـمام للثـورة والذيـن بـدأوا يصابـون بالإرهـاق، لعصيـان أوامـر قادتهـم والانضـمام إلى صـف إخوانهـم وأخواتهـم في الثـورة بسـلاحهم.

إن التمسـك بالنزعـة السـلمية هـو موقـف رجعـي يجـب مواجهتـه، إن مطالبـة الجماهـير السـودانية بـأن تتعـرض للقتـل والجـراح والاعتقـال في صمـت وتجريدهـا مـن كل الوسـائل للدفـاع عـن نفسـها هـو بمثابـة تقديـم خدمـة مجانيـة لقـوى الثـورة المضـادة وتسـهيل مهمتهـا في سـحق الثـورة وإرهـاق الجماهـير. إن التكلفـة البشريـة والماديـة والمسـتقبلية في حالـة تسـليح الجماهـير سـتكون أقـل بكثـير مـن التكلفـة البشريـة والماديـة والمسـتقبلية في حالـة انتصـار الثـورة المضـادة.

من أجل تسليح الطبقة العاملة والجماهير!
من أجل توجيه دعوة إلى الجنود وصغار الضباط للانضمام للثورة بسلاحهم!

حول ميثاق تجمع المهنيين السودانيين

إن الميثـاق الجديـد الـذي أصـدره تجمـع المهنيـين السـودانيين وبنـوده هـو خطـوة متقدمـة جـداً، يحمـل الميثـاق كثـيرا مـن النقـاط المهمـة التـي تحمـل في طياتهـا بـذور التعلـم مـن التجربـة الذاتيـة، لكـن هنـاك بعـض النقـاط الغائبـة وبعـض النقـاط التـي تفتـح البـاب لانتشـار الأوهـام والالتبـاس والتـي يجـب تصحيحهـا.

إن عـدم وضـوح الميثـاق فيـما يخـص الشـق الاقتصـادي هـي نقطـة الضعـف الأساسـية، الاعتمـاد عـلى تعريفـات فضفاضـة بـدون شرح آليـة تنفيذهـا، والإصرار عـلى محاولـة تصويـر وخلـق نمـط أكـثر إنسـانية مـن الرأسـمالية هـو عبـث، كيـف سـيمكن دفـع القطـاع الخـاص والـشركات الأجنبيـة إلى العمـل لصالـح الجماهـير بـدلاً مـن العمـل لأجـل جنـي الأربـاح عـلى حسـاب الجماهـير مـن أجـل المصلحـة الذاتيـة.

إن الميثاق الجديد الذي أصدره تجمع المهنيين السودانيين وبنوده هو خطوة متقدمة جداً، يحمل الميثاق كثيرا من النقاط المهمة التي تحمل في طياتها بذور التعلم من التجربة الذاتية، لكن هناك بعض النقاط الغائبة وبعض النقاط التي تفتح الباب لانتشار الأوهام والالتباس والتي يجب تصحيحها.

لا يمكن توفير الخبز والتعليم المجاني عالي الجودة والرعاية الصحية المجانية عالية الجودة والقضاء على البطالة وتوفير حياة لائقة وإنسانية للجماهير بدون مصادرة البنوك والمفاتيح الأساسية للاقتصاد والشركات الكبرى والأجنبية وأملاك كبار ملاك الأراضي، ووضعها تحت رقابة العاملين فيها، واستخدام تلك الثروات لمصلحة الجماهير في خطة اقتصادية اشتراكية مخططة ديمقراطياً طبقاً إلى الاحتياجات والأهداف.

إن محاولة كسب ود البرجوازية المحلية والقوى الإمبريالية، الذين نهبوا وسرقوا ثروات البلاد واستغلوا وأفقروا الطبقة العاملة والجماهير طيلة عقود، محاولة كسب ود هؤلاء عن طريق طمأنتهم أن ثرواتهم ستبقى في مأمن هي خيانة صريحة، اربأ حتى بالقادة المرتعشين الحاليين للثورة أن يتورطوا فيها، برغم أنهم ليسوا بعيدين عنها، وهي وصفة للعجز، بافتراض حسن النوايا. إن هذه السياسة لا توفر طريقا للأمام ولا تقدم إجابات على أسئلة واحتياجات الجماهير، خصوصاً في الوقت الذي ما زالت الجماهير تتعرض فيه لهجمات اجتماعية واقتصادية حتى في ظل سودان الثورة.

إن قبلت بالنظام الرأسمالي فيجب أن تقبل بالاستغلال والإنتاج من أجل الربح وليس من أجل الاحتياجات وفوضى السوق والتقشف والفقر والبطالة وغيرها من النتائج الحتمية للنظام الرأسمالي. كيف يمكن تحسين حياة الجماهير وتنظيم الاقتصاد لمصلحتها في ظل الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج؟، لا يمكن أن ننظم ما لا نتحكم فيه، ولا يمكن أن نتحكم فيما لا نمتلكه، بالتالي في ظل النظام الرأسمالي، نظام الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، من المستحيل أن ننظم ونتحكم في الاقتصاد ونسيره لمصلحتنا، ما لم ننتزع ملكية وسائل الإنتاج من محتكريها الرأسماليين.

يحمل الميثاق بعض النقاط التقدمية المهمة، مثل تأسيس مجلس تشريعي من القوى القاعدية والعمالية والثورية، وهو خطوة ثورية مهمة يجب أن نتمسك بها وندفع من أجل تشكيله وانعقاده في أقرب وقت ممكن، هذا المجلس سيكون بداية الإعلان عن حالة ازدواجية السلطة في السودان بشكل واضح. يجب أن نتأكد من أن يكون مجلس الثورة خالٍ من الجنرالات والبرجوازية والقوى الرجعية الأخرى، وأن ينتخب من قبل القوى الثورية في المجتمع ويخضع لمراقبتها الدائمة. لكن السؤال كيف يمكن إنشاء ذلك المجلس في ظل هيمنة الجنرالات على المجتمع، كيف يمكن تأمين انعقاد ذلك المجلس وتأمين سلطته. وهنا نأتي مرة أخرى لمسألة القوة المادية والمسلحة، تلك السلطة الجديدة لابد لها من قوة تحميها، بدون خطة واضحة وجريئة لتجريد الثورة المضادة من قوتها وسلاحها ستبقى مسألة إنشاء وتأمين السلطة البديلة مجرد حلم جميل.

إن السبيل الوحيد هو العمل على تجريد الثورة المضادة من قوتها عن طريق تسليح الطبقة العاملة والجماهير، ودعوة الجنود وصغار الضباط، الحلفاء الطبيعيون للجماهير، للانضمام للثورة بسلاحهم. بدون هذا سيعمل الجنرالات على سحق بذور السلطة البديلة أو احتوائها وعزلها عن الجماهير وقواعد الجيش البرجوازي النظامي.

من أجل مصادرة البنوك والشركات الكبرى والأجنبية ووضعها تحت رقابة العاملين فيها!

من أجل وضع خطة اقتصادية اشتراكية مخططة ديمقراطياً!

من أجل مجلس تشريعي منتخب من النقابات والمجالس العمالية ولجان المقاومة!

من أجل تسليح الطبقة العاملة والجماهير ودعوة الجنود وصغار الضباط للانضمام للثورة بسلاحهم!

من أجل الاستعداد لبناء السلطة البديلة: سلطة الطبقة العاملة والجماهير الفقيرة!

دور الماركسيين

إن دور الماركسيين الملتزمين، داخل الحزب الشيوعي السوداني وخارجه، هو دور محوري اليوم أكثر من أي وقت مضى. على المناضلين الماركسيين المنخرطين في حركة الطبقة العاملة ولجان المقاومة في الشوارع أن يعلموا أن مستقبل الثورة السودانية كله يتوقف عليهم، يتوقف على قدرتهم على تنظيم الطبقة العاملة والجماهير لهزيمة الثورة المضادة، وبلورة خطاب اشتراكي لاجتذاب الجماهير. لا أمل في القادة الاصلاحيين اليساريين المفلسين، إن هؤلاء يحملون بذور التعاون الطبقي والخيانة، وإن استمرت القيادة في يد هؤلاء القادة فإن الهزيمة والخيانة مصير لا مفر منه.

ما يجب أن نبدأ به هو إضفاء طابع ثوري وطبقي على خطاب الثورة، والأرضية جاهزة في لجان المقاومة المناضلة، التي هي بمثابة أجهزة حكم محلية، وتحمل بذرة السلطة البديلة وقيم المجتمع البديل، وهو ما ظهر في المظاهرات الداعمة للنساء ودعوة النساء للاشتراك في لجان الأحياء على سبيل المثال، لا ينقص لجان المقاومة اليوم سوى أن تتبين الطريق. لا يجب على الماركسيين أن يتركوا المناضلين والمناضلات في لجان المقاومة أن يتعلموا كل شيء عن طريق التجربة، الأحداث لن تترك لنا كل الوقت الذي نحتاجه للتعلم، التعلم من التجربة هي عملية مؤلمة، وفي مثل هذا الظرف يعني الهزيمة. يجب أن ننقل للجماهير ما تعلمناه بفضل النظرية ودراستنا للتجارب التاريخية. يجب أن نعمل على تنظيم تدخل منظم في لجان المقاومة لإكسابها وعيا وخطابا ماركسيا طبقيا وربطها بالطبقة العاملة، وليس مجرد التواجد فيها.

كما يجب أن نعمل من أجل التدخل في الحركة العمالية النشطة. إن العمال ابانوا عن قوة مهولة وقدرة جبارة على التأثير وتحديد مسار الأحداث، وهو ما ظهر في العصيانات المدنية والإضرابات العامة التي استجابت لها الطبقة العاملة، وكان يمكن حسم السلطة فيها لو كانت الثورة تتوفر على قيادة ثورية مناضلة وليست اصلاحية منبطحة لا تثق في قدرة الطبقة العاملة والجماهير في تغيير المجتمع. يجب أن نعمل على رفع وعي الطبقة العاملة بمهمتها التاريخية المتمثلة في قيادة الجماهير نحو إسقاط النظام الحالي وبناء نظام بديل، الطبقة العاملة هي الطبقة الأكثر ثورية وقوة في المجتمع، بدون أن تعي الطبقة العاملة مهمتها التاريخية الكبرى وتضع نفسها على رأس الجماهير الثورية الكادحة، سيكون من المستحيل تصور احتمالية الانتصار الحقيقي للثورة، ما يعني انتصار الثورة الاشتراكية في السودان، تستطيع الطبقة السائدة دائماً تقديم أي نوع من التنازلات وانتظار الفرصة الملائمة للانقضاض على الثورة.

إن دور الماركسيين الملتزمين، داخل الحزب الشيوعي السوداني وخارجه، هو دور محوري اليوم أكثر من أي وقت مضى. على المناضلين الماركسيين المنخرطين في حركة الطبقة العاملة ولجان المقاومة في الشوارع أن يعلموا أن مستقبل الثورة السودانية كله يتوقف عليهم، يتوقف على قدرتهم على تنظيم الطبقة العاملة والجماهير لهزيمة الثورة المضادة، وبلورة خطاب اشتراكي لاجتذاب الجماهير. لا أمل في القادة الاصلاحيين اليساريين المفلسين، إن هؤلاء يحملون بذور التعاون الطبقي والخيانة، وإن استمرت القيادة في يد هؤلاء القادة فإن الهزيمة والخيانة مصير لا مفر منه.

والآن في ظل التحضير لإضراب عام وعصيان مدني مقبل، يجب علينا أن نعمل على إكساب الطبقة العاملة الوعي الاشتراكي والتأكد من استعداد الطبقة العاملة على حسم السلطة. إن الإضراب العام يطرح مسألة السلطة لكنه لا يحسمها تلقائياً، بدون خطة وأفق لتشكيل سلطة بديلة سينتهي الإضراب العام بدون تحقيق مكاسب جدية وجذرية دائمة، وهو ما يجب أن نعمل من أجله ونتأكد منه.

المطلوب هو خطاب ماركسي واضح يبين ويشرح أن لجان المقاومة وحدها غير قادرة على إسقاط سلطة الثورة المضادة وبناء سلطة الجماهير، يجب ربط حركة الطبقة العاملة بحركة الجماهير في لجان المقاومة في الأحياء، ويجب تنظيم الطبقة العاملة وتجهيزها لقيادة الجماهير للاستيلاء على السلطة. إن هذا هو السبيل الوحيد للانتصار.

من أجل اكساب لجان المقاومة وعيا وخطابا طبقيا وثوريا!

من أجل ربط لجان المقاومة بالطبقة العاملة!

من أجل تجهيز الطبقة العاملة لقيادة الجماهير نحو حسم السلطة!

خاتمة

لكي أكون واضحاً، إن الثورة المضادة والهزيمة تلوحان في الأفق، والوقت ابداً ليس في صالحنا مهما بدا عكس ذلك، مسألة التوقيت وانتهاز الفرص في لحظتها المناسبة هي مسألة حاسمة، خصوصاً في وقت الثورة. إن التردد وترك القيادة في يد الإصلاحيين اليساريين المفلسين هو طريقنا للهزيمة، إن هؤلاء القادة يتحملون بشكل كامل مسؤولية ما آلت إليه الثورة. إن الثورة تمتلك مخزون هائلا من الطاقة الثورية، لكن هذا لا يمكن أن يستمر للأبد، في لحظة يمكن أن يتسرب التشكك في جدوى الفعل الثوري واليأس ومعه كل قذارة وبلادة عهود الهزيمة، والثورة المضادة ستعمل على ترتيب صفوفها في أقرب فرصة، وإن لم نسدد لها الضربة القاضية سوف تستطيع في وقت ما من تجاوز التخبط الحالي، وهذا ما لا يجب أن نسمح به.

بدون بلورة خاطب اشتراكي ثوري طبقي واضح وتنظيم الطبقة العاملة في النقابات والمجالس العمالية والجماهير في لجان المقاومة لإسقاط سلطة الجنرالات وبناء السلطة البديلة، سلطة العمال والفقراء، وتوجيه نداء إلى الجنود وصغار الضباط للانضمام للثورة بسلاحهم، فإن احتمالية الهزيمة لن تكون ضئيلة، وهو ما يجب أن يستعد له الماركسيون والثوريون أيضاً.

في النهاية، أقول "الويل للمهزومين"، في الثورة لا يوجد حلول وسط، إما انتصار كامل أو هزيمة كاملة.

المجد للشهداء والشفاء العاجل للجرحى والحرية للمعتقلين!

تسقط سلطة الجنرالات!

تسقط حكومات رأس المال!

تسقط قوات قمع الجماهير!

لا حل سوى انتصار الثورة الاشتراكية بقيادة حكومة عمالية!

07 يناير/ كانون الثاني 2022

التحق بمدرستنا المستمرة في دراسة النظرية الماركسية ، راسلنا على البريد contact@marxy.com

السودان الثورة السودانية في خطر

الرفيق جو اتارد

تقف الثورة السودانية عند مفترق طرق حاسم. قوات الأمن تقتل وتغتصب وتضطهد الجماهير بدون عقاب. وقد ردت الثورة بإطلاق احتجاجات جديدة وإغلاق الأحياء وتنظيم إضراب عام لمدة يومين، رغم أنه لم يحقق نجاحا كبيرا بسبب الافتقار إلى التنظيم. يجب أن نكون واضحين: الوقت ينفذ.
الليبراليون المفلسون، الذين تسلقوا رأس الحركة الثورية في عام 2019، أهدروا دماء الشعب على استراتيجية إجرامية مبنية على التفاوض مع الجيش. وفي غضون ذلك يواصل قادة لجان المقاومة والمنظمات المهنية الثورية التأكيد على الأساليب "السلمية" في مواجهة همجية الثورة المضادة. لا توجد أي خطة لاعتقال الجنرالات والاستيلاء على السلطة. وهذا يقود الجماهير نحو هزيمة مريرة ودموية.

منذ الانقلاب العسكري، في أكتوبر من العام الماضي، تخوض الجماهير صراعا شبه يومي مع الثورة المضادة، التي يقودها اللواءان عبد الفتاح البرهان وحميدتي. وقد قُتل، حتى الآن، ما لا يقل عن 71 شخصا وجُرح الآلاف. العدد الدقيق للضحايا غير معروف، لكنه بلا شك أعلى بكثير مما تقوله الأرقام الرسمية. قوات الدعم السريع، التي هي وحدة شبه عسكرية تعتمد على مليشيات الجنجويد الدموية، بقيادة حميدتي، شنت حملة إرهاب شرسة ضد الجماهير الثورية. لكن عندما ثبت أن القمع وحده عاجز عن وقف الحركة خلال العام الماضي، عمل الجنرالات، في نوفمبر، على إعادة رئيس الوزراء عبد الله حمدوك إلى السلطة، وهو الذي سبق أن أطاحوا به واعتقلوه في أكتوبر. تم وضع حمدوك على رأس حكومة انتقالية "تكنوقراطية" جديدة، كان المجلس العسكري يأمل في أن توفر غطاء لعودة الديكتاتورية العسكرية، وتحويل مسار الثورة.

لكن بعد ستة أسابيع، اتضح أن محاولة ذر الرماد في عيون الجماهير قد باءت بالفشل. فحمدوك الذي كان فقد مصداقيته بالفعل بسبب برنامج التقشف الوحشي الذي نفذه في 2019-2020، بأمر من صندوق النقد الدولي -أثناء فترة تقاسم السلطة مع نفس الجنرالات الذين كانت الجماهير تحاربهم- قد حطم أي ذرة باقية من الشرعية في أعين الجماهير بفعل دخوله في ذلك الاتفاق الفاوستي.

حمدوك الذي هو شخصية عرضية، خبير اقتصادي سابق في الأمم المتحدة، والذي لم يكن موجودا أصلا في البلد عندما كانت ثورة 2019 مستعرة، تم دفعه إلى المقدمة من قبل القادة الليبراليين وحلفائهم الإمبرياليين. وبعد إعادته إلى منصبه، سخر منه المتظاهرون في المظاهرات بوصفهم له على أنه "سكرتير الانقلاب". صرح عامل ميكانيكي ومتظاهر يبلغ من العمر 40 عاما، لصحيفة فاينانشيال تايمز في نوفمبر قائلا:

«على حمدوك أن يناضل من أجل الشعب وليس من أجل الجيش. سنواصل الاحتجاج حتى تكون لدينا حكومة مدنية كاملة بدون جيش بداخلها، لا عودة إلى الحكم العسكري أبدا».

بعد استقالة حمدوك، قام الإمبرياليون المنافقون التابعون للأمم المتحدة بتنظيم محادثات، في محاولة لرسم "مسار مستدام إلى الأمام نحو الديمقراطية والسلام". كما رحبت جامعة الدول العربية بهذه المفاوضات الصورية، حيث قدم النظام المصري (الذي هو نفسه نظام ديكتاتوري عسكري) نفسه "وسيطا". لقد أظهر الجيش بالفعل أنه ليست لديه أي مصلحة في قيام حكم مدني بأي شكل من الأشكال. لم يقبلوا سوى بترتيب تقاسم السلطة في عام 2019 من أجل المماطلة لربح الوقت. إن مقترح المحادثات هذا ليس سوى مناورة من قبل الإمبرياليين والأنظمة المجرمة في المنطقة لنزع فتيل الثورة وإضفاء الشرعية على استيلاء الجنرالات المعادين للثورة على السلطة. إن ما يريدونه هو الاستقرار، وأكثر ما يخشونه هو امتداد الثورة السودانية إلى بقية بلدان القرن الأفريقي والعالم العربي.

لقد رفضت الجماهير محققة المحادثات التي توسطت فيها الأمم المتحدة. وأكدت تنسيقية لجان المقاومة (التي هي الهيئة العامة التي تمثل لجان الأحياء) والحزب الشيوعي وتجمع المهنيين السودانيين شعارات الثورة الرئيسية: لا تفاوض ولا شراكة ولا تقاسم للسلطة مع الجيش. تشعر هذه المجموعات بضغط الشارع الذي يرفض بشدة أي تحرك نحو مزيد من المحادثات مع الجنرالات. وعلى سبيل المثال فقد قام المتظاهرون بتفريق مظاهرة نظمتها مؤخرا قوى الحرية والتغيير -والتي هي تحالف لجماعات معارضة انضمت إلى الحكومة الانتقالية بعد سقوط نظام عمر البشير في عام 2019-، بعد أن كانت قوى الحرية والتغيير قد ساعدت في التوسط في الصفقة بين الجيش وحمدوك في نوفمبر. وبسبب الشعور بهذا الضغط، وعلى الرغم من قبول قوى الحرية والتغيير في البداية نقاش دعوة الأمم المتحدة، اضطر المتحدث باسمها، وجدي صالح، إلى التراجع ورفض "أي شراكة" مع الجيش. فقط مجموعات صغيرة (مثل من يسمون "أصدقاء السودان")، والتي ليس لديها أي نفوذ بين الجماهير، هم من تجرؤوا على حضور تلك المحادثات.

صرح عامل ميكانيكي ومتظاهر يبلغ من العمر 40 عاما، لصحيفة فاينانشيال تايمز في نوفمبر قائلا: «على حمدوك أن يناضل من أجل الشعب وليس من أجل الجيش. سنواصل الاحتجاج حتى تكون لدينا حكومة مدنية كاملة بدون جيش بداخلها، لا عودة إلى الحكم العسكري أبدا».

في الواقع، مع تزايد تجذر الجماهير خلال الأشهر الأخيرة، أصبحت الجماعات السياسية الأكثر امتدادا، مثل قوى الحرية والتغيير وحتى تجمع المهنيين السودانيين يتعرضون للتهميش بشكل متزايد لصالح لجان المقاومة. وقد صارت هذه الهياكل تقوم، بالإضافة إلى تنظيم الاحتجاجات، بتقديم عدد من الخدمات الأساسية التي لا يوفرها النظام. ويشمل ذلك شراء المعدات المدرسية والطبية، وحفر الآبار، وتنظيف الشوارع، وتنظيم "أسواق التضامن" حيث تُباع السلع الأساسية بسعر التكلفة للأسر الأشد فقرا.

صرحت الناشطة السودانية مارين النيل: «نرى في الكثير من وسائل الإعلام الدولية أن هذه الاحتجاجات جاءت بدعوة من قوى الحرية والتغيير أو تجمع المهنيين السودانيين، وهذا بعيد كل البعد عن الواقع. في الواقع، إن التنظيمات التي تقود هذه الحركة هي لجان مقاومة الأحياء، والتي تطورت بشكل رئيسي في عام 2019 للمساعدة في تنظيم الاحتجاجات في الأحياء، في مختلف الأحياء، وهي الآن الهيكل القيادي في الدعوة إلى الاحتجاجات وهي في الواقع صوت الشعب».

هذه خطوة إيجابية، تظهر أن الجماهير السودانية بدأت بشكل متزايد تنظر إلى لجان المقاومة باعتبارها هيئات سلطتها الخاصة، التي تشكلت في خضم النضال.

الثورة المضادة تهاجم

لكن مع استقالة حمدوك تم التخلي عن أي تظاهر بـ"التحول الديمقراطي". لم يبق شيء الآن سوى المواجهة المفتوحة بين الثورة والثورة المضادة. يمثل هذا صراعا بين القوى الحية، والنتيجة لم تحسم بعد. لكن يجب أن نكون صادقين، فعلى الرغم من شجاعة الجماهير السودانية ومثابرتها المثيرة للإعجاب، فإن المبادرة والزخم موجودان حاليا في يد المجلس العسكري. مع رحيل حمدوك لم يعد الجيش يتظاهر حتى بأنه مهتم باحترام السلطة الدستورية والمدنية. لقد سقط القناع.

يشعر المجلس العسكري بالثقة ويصعد من حملة القمع. قُتل ما لا يقل عن سبعة أشخاص وجُرح المئات يوم الاثنين 17 يناير وحده، عندما خرج آلاف المتظاهرين من 17 مدينة للمشاركة في الجولة 14 من المظاهرات الجماهيرية التي تعرفها البلاد منذ انقلاب العام الماضي. كان هذا أحد أكثر الأيام دموية حتى الآن. لقد تم قمع الجماهير بوحشية بقنابل الغاز المسيل للدموع والهراوات والذخيرة الحية، وحتى المدافع المضادة للطائرات. كانت هناك تقارير عن قيام القوات بمهاجمة المستشفيات ومنع المتظاهرين المصابين من الدخول إليها. في الخرطوم لم يُسمح للثوار حتى بدفن موتاهم بسلام. وتعرض موكب عزاء للهجوم من طرف قوات الأمن التي حاولت على ما يبدو دهس المشيعين بعرباتها المدرعة. لا نهاية لبربرية الثورة المضادة!

ردا على جرائم القتل يوم الاثنين، دعت 40 نقابة ومنظمة مهنية إلى خوض إضراب عام لمدة يومين، يومي الثلاثاء والأربعاء. وعلاوة على ذلك طالبت اللجنة المركزية للأطباء السودانيين أعضائها بالانسحاب من المستشفيات الخاضعة لسيطرة العسكر، فيما بدأ المتظاهرون بوضع المتاريس على الطرق في العاصمة. الأحياء العمالية في الخرطوم، في بري وجبرة، أغلقت بالكامل. في الوقت نفسه خرج طلاب الثانويات والجامعات في العاصمة للتظاهر، ورفضوا اجتياز امتحاناتهم.

لكن هذه النضالات كانت، مع الأسف، متفرقة وسيئة التنسيق، ويرجع ذلك جزئيا إلى الانقطاع المستمر للاتصالات السلكية واللاسلكية. لم ينفذ الإضراب إلا بشكل جزئي فقط، مع بقاء العديد من المتاجر والشركات مفتوحة. وهذا يتناقض بشكل صارخ مع الإضرابات العامة القوية في ماي ويونيو 2019 ضد المجلس العسكري الانتقالي، والتي كانت قد حققت نجاحا شبه كامل في المدن الرئيسية في البلاد.

تم إضعاف الإضراب، جزئيا، بسبب الافتقار إلى التخطيط المسبق والتواصل. الإضراب العام نشاط جدي، ويجب الاستعداد له بشكل مناسب. وبالإضافة إلى ذلك فإن ثلاثة أشهر من القمع المستمر أثرت على الجماهير، إلى جانب تدهور الوضع الاقتصادي في البلاد. يدين السودان بالفعل بـ 60 مليار دولار من متأخرات الديون الخارجية، والتي تفاقمت بسبب حجب البنك العالمي لمليارات دولار من المساعدات كان قد وعد بها. ارتفع معدل التضخم إلى 443%، وهناك نقص حاد في السلع الأساسية مثل الغذاء والدواء.

قال مراسل سوداني لموقع marxist.com: «نظرا لتدهور مستويات المعيشة اليومية هنا، فإن الناس لا يستطيعون تحمل إضراب يتم بدعوات مقتضبة، إن ذلك يحتاج إلى تخطيط مناسب. إن يومين من الإضراب، بالنسبة للكثيرين، هما في الأساس يومين من الجوع. ليس لدى قادة الثورة أية خارطة طريق، لديهم فقط المزيد من الدعوات إلى الاحتجاجات».

وهذه هي النقطة الرئيسية. لقد أظهر الشعب السوداني مرارا وتكرارا استعداده لتحمل تضحيات جسيمة في حربه ضد الثورة المضادة. لكن لا يمكن أن يُتوقع منهم أن يعلقوا حياتهم إلى الأبد، وأن يبقوا مستعدين دائما للتظاهر والإضراب حسب نزوة قادتهم، دون أي أفق. إنهم ليسوا صنبورا يمكن للقيادة تشغيله وإيقافه متى شاءت للضغط على النظام.

وخاصة عندما يصر قادة لجان المقاومة وتجمع المهنيين السودانيين على الاستمرار في أساليبهم السلمية المفلسة. ليس على الجماهير أن تتحمل فقط المشاق والجوع والفوضى، بل عليها أيضا أن تضع حياتها على المحك في مواجهة نظام دكتاتوري متعطش للدماء، دون أي وسيلة للدفاع عن نفسها. في الواقع لقد أصدرت لجان المقاومة بولاية الخرطوم مؤخرا بيانا بدا وكأنه يعترف بالقدرية الضمنية في الاستراتيجية التي تتبناها: «من واجبنا الاستمرار في مقاومة [الجنرالات] حتى ننتصر، أو أن يحكموا بلدا فارغا بعد أن يقتلونا جميعا». [خط التشديد من عندنا]. يفترض أن تكون هذه كلمات حماسية الهدف منها إلهام الجماهير! «ازحفوا ضد الجيش حتى يستسلموا- أو نموت جميعنا!»، هذا أسوأ من السذاجة، أسوأ من الجنون: إنها جريمة.

فشل القيادة وإفلاس النزعة السلمية

يجب أن نقول بصوت عال وواضح: إذا تعرضت الثورة السودانية للهزيمة، فإن المسؤولية الرئيسية تقع على كاهل قيادتها. لقد تمت إضاعة الكثير من الفرص. في عام 2019 أسقطت الجماهير رئيسين اثنين في غضون ثلاثة أيام: البشير ونائبه الأول السابق أحمد عوض بن عوف، الذي ناور المجلس العسكري الانتقالي لوضعه في السلطة. لم تشهد الثورة إضرابا عاما واحدا فقط، بل إضرابين عامين عظيمين، أحدهما في ماي والآخر في يونيو 2019. وكانت قوة الحركة قد بدأت تؤثر في الرتب الدنيا من أعضاء القوات المسلحة.

قال مراسل سوداني لموقع marxist.com: «نظرا لتدهور مستويات المعيشة اليومية هنا، فإن الناس لا يستطيعون تحمل إضراب يتم بدعوات مقتضبة، إن ذلك يحتاج إلى تخطيط مناسب. إن يومين من الإضراب، بالنسبة للكثيرين، هما في الأساس يومين من الجوع. ليس لدى قادة الثورة أية خارطة طريق، لديهم فقط المزيد من الدعوات إلى الاحتجاجات».

كان ذلك الغليان هو ما أجبر كبار الضباط على التخلص من البشير في المقام الأول، ويشرح إلى حد كبير سبب بقاء القوات النظامية في ثكناتهم منذ ذلك الحين، واقتصار البرهان على الاعتماد على قوات الدعم السريع والشرطة في معظم أعمال القمع الأخيرة. بعد ذلك، بعد انقلاب أكتوبر 2021، تحركت الجماهير بشكل عفوي للتصدي للمجلس العسكري، وشلت تحركه بسلسلة ضخمة من المسيرات وإضراب عام قوي آخر.

عبد الله حمدوك

رئيس وزراء الحكومة الانتقالية المنقلب عليه

كان يمكن للثورة أن تستولي على السلطة عشر مرات. لكن القادة الليبراليين قاموا، في كل مرة، بخيانة الجماهير من خلال الدخول في صفقات مع قادة الجيش، وبالتالي إعطاء المجلس العسكري الوقت لإعادة تجميع صفوفه، والاستيلاء بشكل وثيق على السلطة.

وحتى الآن لم يتخذ قادة لجان المقاومة الخطوات اللازمة لتسليح وتنظيم الجماهير للدفاع عن النفس. كما أنهم لم يوجهوا أي نداء عام إلى الجنود العاديين. سيكون لذلك أثر فعال في شق صفوف الثورة المضادة وإضعافها، مع توفير الأساس للجان الدفاع المسلحة لكي تقوم بحماية الجماهير وتسليحها وتدريبها. إنهم يستخدمون ذريعة أن الدخول في مواجهة مسلحة مع الجيش يمكن أن يؤدي إلى اندلاع عنف فوضوي، أو يؤدي إلى حرب أهلية مدمرة. لكن الجماهير غارقة فعلا في خضم حرب أهلية من جانب واحد، حيث العدو هو الوحيد المستعد للقتال! وكما قال تروتسكي عن قادة حزب العمال للتوحيد الماركسي المتذبذبين خلال الحرب الأهلية الإسبانية، «إن الإفراط في "الحذر" هو أكبر افتقار للحذر فظاعة». إن المطلوب ليس النزعة المسالمة، بل المقاومة المسلحة المنظمة!

على سبيل المثال، عندما وردت تقارير من النظام تفيد بأن شرطيا تعرض للطعن حتى الموت خلال مظاهرة، سارع قادة الحركة إلى إنكار تورطهم وإعادة التأكيد على الطابع "السلمي" للحركة. من المحتمل أن يكون المجلس العسكري يكذب بشأن هذا الهجوم (الذي حتى وإن حدث فإنه سيكون الضحية الأولى من جانب قوات النظام حتى الآن) من أجل تبرير المزيد من الاعتقالات والقمع. كان هذا تكتيكا قد استخدموه في عام 2019.

ومع ذلك فإنه إذا بدأت الجماهير تقاوم قوات القمع، التي تمارس التقتيل بشكل يومي، فإن مهمة القيادة الثورية هي تنظيمها في شكل مقاومة منضبطة. سيمنع ذلك حدوث مناوشات فوضوية غير فعالة، كما سيمكن من التصدي لعنف الثورة المضادة. إن رفض استخدام القوة لم يؤدِّ إلى الحفاظ على «السلم»، بل حكم فقط على الجماهير ببذل المزيد من الدماء. وسيسقط المزيد من القتلى ما لم يتم التخلي عن هذه الأساليب السلمية. لنقتبس من تروتسكي مرة أخرى: «إن معارضة شعار تسليح العمال... يعني عزل النفس عن الجماهير، وعزل الجماهير عن السلاح».

وعلاوة على ذلك فقد تُرِكت الجماهير في الميادين دون توجيهات من قبل تنسيقيات لجان المقاومة أو تجمع المهنيين السودانيين باستثناء دعوات لا تنتهي إلى المزيد من "الاحتجاجات الوطنية". لم يقدم أي من قادة الثورة السودانية في أي مرحلة أي خطة ملموسة للإطاحة بالمجلس العسكري. كل ما فعلوه هو توجيه الجماهير لمواصلة التظاهر بطرق "سلمية" نحو مرمى رصاص قوات الأمن. وما يزال الحال كما هو حتى الآن. لقد أظهرت الثورة المضادة أنها لا تتورع عن إغراق الثورة في الدماء. ليس هناك حد لعدد الإضرابات السلمية والمسيرات المليونية التي سيسحقها البرهان وحميدتي من أجل حماية سلطتهما وامتيازاتهما. السبيل الوحيد للمضي قدما هو قيام تجمع المهنيين السودانيين ولجان المقاومة بتنظيم إضراب عام مفتوح، بهدف إطلاق تمرد ثوري يسقط المجلس العسكري ويقبض على قادته وأنصاره ويصادر ممتلكاتهم.

لا وقت لنضيعه

لقد تم بالفعل إهدار قدر كبير من الوقت الثمين. كل ثانية تمر تقوي قبضة الجنرالات، وتتسبب في المزيد من انحسار طاقة الجماهير. ما يزال من الممكن تغيير هذا الوضع. في بداية العام أصدر تجمع المهنيين السودانيين ميثاقا جديدا، اتفق عليه "القوى الثورية، وقوات التحرير المسلحة، والنقابيون، والقوى السياسية". واقترحت توحيد جميع هذه الهيئات في مجلس تشريعي ثوري واحد. والغرض من هذه الهيئة هو «تنسيق مواقف القوى الثورية الحية... وبناء تحالفها القاعدي الواسع، وتحصين إرادتها الثورية ضد الاختطاف والتجيير، ولضمان جاهزيتها لاستلام السلطة».

هذه خطوة صحيحة، لكن المطلوب ليس المزيد من الكلام والنقاش بين القوى الثورية، بل الأفعال! كيف سيتم بالضبط إلقاء القبض على الجنرالات والاستيلاء على السلطة؟ ما هي الخطة؟ لا أحد يجيب. لو أطلق قادة لجان المقاومة دعوة جريئة إلى خوض إضراب عام مفتوح، ونظموا الجماهير لخوض مواجهة مسلحة ضد المجلس العسكري، ودمجوا ذلك مع إطلاق نداء عام وحملة تآخي مع الجنود العاديين في ثكناتهم، فقد ينعش ذلك الثورة من خلال تمكينها من طريق ملموس إلى الأمام.

لكن لجان المقاومة ما تزال حتى الآن تصر على أنها منظمات "غير سياسية"، رغم دورها في تنظيم ثورة، والذي هو أكبر فعل سياسي يمكن تخيله. المهمة الآن هي إعداد الجماهير للنضال من أجل الإطاحة بالجنرالات. سوف تجد دعوة الجماهير الثورية إلى التعبئة أوسع صدى ممكن إذا ارتبطت ببرنامج يلبي تطلعات الجماهير. الميثاق الجديد التي أصدره تجمع المهنيين السودانيين يقدم بالفعل برنامجا من 10 نقاط للإصلاح الاقتصادي وحقوق النساء وإلغاء المجلس العسكري الانتقالي وما إلى ذلك. لكن هذه المطالب تغفل ما هو جوهري.

بدلا من مجرد الوعد بـ"مجلس جديد" و"ديمقراطية" بشكل مجرد، يجب التعهد بعقد جمعية تأسيسية أن يفي بالمطلب السياسي الرئيسي للثورة في بناء الديمقراطية ووضع حد للديكتاتورية. وفي غضون ذلك يمكن تحسين الظروف الاقتصادية الصعبة التي تواجه الجماهير على الفور من خلال استخدام الثروة المصادرة من الجنرالات وأتباعهم في الاستثمار في الوظائف والخدمات وتحديث البنية التحتية والزراعة، إلى جانب التنصل من أداء الديون الخارجية. كان في مقدور ولو حزب صغير يرفع مثل هذه السلسلة من المطالب والشعارات في أكتوبر، أن يغير الوضع بشكل جذري الآن. وما تزال هذه الاستراتيجية والبرنامج أضمن طريقة لتحفيز الجماهير لشن هجوم مضاد ضد المجلس العسكري.

لقد عانى الشعب السوداني كثيرا في نضاله من أجل الديمقراطية والعيش الكريم. وحدها الاشتراكية في السودان، باعتبارها جزء من فدرالية اشتراكية لأفريقيا والشرق الأوسط، القادرة على تحريرهم أخيرا من نير الديكتاتورية والاستغلال الإمبريالي. وكما أشارت ناشطة سودانية، في مقابلة حديثة مع الفاينانشيال تايمز، فإن المصاعب الاقتصادية التي فرضتها الإمبريالية على البلاد «قتلت من الناس أكثر حتى ممن قتلهم الجيش بالسلاح. لقد مات الكثير من الناس بسبب الجوع، وعدم حصولهم على الخدمات الصحية الأساسية المطلوبة».

وأضافت: «يترك الناس وظائفهم لأنهم لم يعودوا قادرين على تحمل تكاليف التنقل من منازلهم إلى أماكن عملهم، ولأنهم اضطروا إلى الانتقال إلى أطراف المدينة لأنه لم يعد بإمكانهم العيش بجوار مكان عملهم. إنه وضع متدهور أشاد به لفترة طويلة المجتمع الدولي الذي لم يكن يهتم بأي شيء سوى فتح مساحة جديدة للاستثمارات».

هذا صحيح تماما، إذ احتفل الإمبرياليون بحكومة حمدوك والجنرالات الانتقالية، بينما كانت تنفذ سياسات التقشف نيابة عنهم. والآن يذرفون دموع التماسيح على رفض الجيش التنحي لصالح "الحكم المدني". لقد أظهر الليبراليون وما يسمى بالمجتمع الدولي أنهم لا يقدمون أي حلول. لكن لا يمكن الحديث عن أي بديل ما لم يتم تحطيم الثورة المضادة. لا يمكن في هذه اللحظة أن يكون هناك أي تردد ولا مزيد من الكلام عن السلام. يجب إلحاق الهزيمة بالجنرالات -بشكل كامل ونهائي- وإلا فإن الثورة ستواجه المصير نفسه. وكما كتب لينين ردا على تذبذب المناشفة خلال ثورة 1905، عندما كان العمال والفلاحون يخوضون معركة حياة أو موت ضد القيصرية، فإنه:

«لا شيء يمكن أن يكون أقصر نظرا من [الرأي] الذي تبناه جميع الانتهازيين، بأن الإضراب جاء في وقت مبكر ولم يكن ينبغي أن يبدأ، وأن [العمال] ما كان ينبغي عليهم أن يحملوا السلاح. على العكس من ذلك، كان ينبغي علينا أن نحمل السلاح بمزيد من الحزم والحيوية والجرأة؛ كان يجب علينا أن نوضح للجماهير أنه من المستحيل حصر الأمور في الإضراب السلمي وأنه كان من الضروري خوض نضال مسلح شجاع وحازم. والآن يجب علينا أخيرا أن نعترف صراحة وعلناً بأن الإضرابات السياسية غير كافية؛ يجب علينا أن نواصل التحريض على أوسع نطاق بين الجماهير لصالح انتفاضة مسلحة... ويجب أن تكون متزامنة قدر الإمكان. يجب على الجماهير أن تعلم أنها تخوض صراعا مسلحا دمويا ومريرا. يجب أن ينتشر احتقار الموت بينهم وذلك ما سيضمن النصر». [خط التشديد من عندنا].

لا محادثات ولا مساومة ولا مصالحة!

من أجل إضراب عام مفتوح وانتفاضة ثورية لإسقاط

المجلس العسكري!

عاشت الجماهير الثورية السودانية!

19 يناير/ كانون الثاني 2022

في ملف المراجعات الفنية ، نقدم لكم مراجعة الرفيق راج ميستري حول المسلسل الكوري الجنوبي الشهير «لعبة الحبار»، ومراجعة الرفيقة لبنى بادي حول فيلم Don't Look UP الذي لفت الكثير من الانتباه مؤخرا .

تجدون هذه المراجعات إبتداء من الصفحة 35

جذور المجتمع الطبقي

جوش هولروید ولوري أوكونيل

لقد تعلمنا أن الانقسام الطبقي هو حالة طبيعية للوجود البشري. لكن وطيلة مئات آلاف السنين عاش البشر فوق الأرض دون ملكية خاصة أو طبقات أو دول أو أي من العناصر الأخرى التي يتكون منها المجتمع الطبقي كما نعرفه. وكما يشرح الرفيقان جوش هولروید ولوري أوكونيل في المقالة الآتية فقد وفر علم الآثار الحديث عددا كبيرا من الأدلة التي تشهد على حقيقة أن انقسام المجتمع إلى طبقات هو تطور حديث نسبيا في تاريخ البشرية. ويعتبر الماركسيون أنه مثلما جاء المجتمع الطبقي إلى حيز الوجود، فإنه يجب أن يختفي في النهاية من الوجود.

عندما ننظر إلى العالم اليوم ونرى ملايير البشر يعانون عذابات الفقر والعبودية والقمع، من السهل أن نفترض أن هذه الفظائع قد رافقت البشرية طوال تاريخها. إذ أن الملوك والفلاسفة والكهنة قد أخبرونا، منذ آلاف السنين، أن هذه الشرور قدر محتوم على الإنسان. ومع ذلك، فإن القيام بدراسة جادة لماضينا البعيد تثبت العكس. فقد عشنا أغلب مراحل وجودنا كجنس، في مجموعات شيوعية تقوم على القنص والالتقاط، بدون أسياد من أي نوع.

بالنسبة للمدافعين عن النظام الحالي، تشكل هذه الحقيقة البسيطة دحضا مدمرا لكل نظرتهم للعالم. ولذلك يميل العديد من المؤرخين والفلاسفة البرجوازيين إلى تجاهل الموضوع بشكل تام. أولئك الذين يحاولون مسح ماضينا المشاعي يفسرون جذور اللامساواة بأنها راجعة لطبيعتنا الجشعة والقمعية التي تؤكد نفسها بعد آلاف السنين من السبات. علينا أن نفهم هذا الادعاء على حقيقته، أي على أنه محاولة لفرض الأخلاق الرأسمالية على التاريخ البشري بأكمله. بينما الواقع هو أن: «كل التاريخ ليس سوى تغير مستمر في الطبيعة البشرية»، كما يقول ماركس في كتابه "بؤس الفلسفة".[1]

إذا أردنا أن نمتلك تصورا علميا حقيقيا تجاه تطور المجتمع، يجب علينا أن نفهم كيف ظهر المجتمع الطبقي، ليس باعتباره حدثا مؤسفا، ولا باعتباره استفاقة لـ "طبيعة بشرية" فوق تاريخية كانت في سبات حتى الآن، بل باعتباره مرحلة ضرورية من مراحل التطور المستمر للمجتمع، الذي نتج، في نهاية المطاف، عن ما كان ربما أعظم ثورة على الإطلاق للقوى الإنتاجية للإنسانية. وهذه ليست بأي حال من الأحوال مسألة أكاديمية محضة. إذ من خلال فهمنا للعوامل التي أدت إلى ميلاد المجتمع الطبقي، يمكننا أن نفهم الطبيعة الحقيقية لمؤسساته، واكتشاف الوسائل التي يمكننا اسقاطها بها.

الإنسان والطبيعة

أوضح ماركس أن أهم سمة أساسية للمجتمع كله هي العلاقة بين البشر وبين الطبيعة. وهذه ليست فكرة مثالية مجردة، بل اعتراف عملي تماما بحقيقة أننا نحن البشر لكي نعيش نحتاج دائما إلى الموارد، التي تأتينا من العالم من حولنا.

علاقتنا بالعالم الطبيعي تتم بوساطة العمل الذي نقوم به اجتماعيا. ومن خلال هذه العملية نستخرج الموارد ونجد مصادر الغذاء والمأوى. لقد كان هذا هو الحال دائما، على الرغم من الإحراج الذي يصاب به العديد من علماء الآثار الحديثين، فالبشر اضطروا دائما إلى العمل من أجل البقاء. وكما يشرح ماركس:

«العمل، إذا باعتباره خالقا للقيم الاستعمالية، هو شرط الوجود البشري... ضرورة طبيعية أبدية تتوسط عملية الأيض (Metabolism) بين الإنسان والطبيعة».[2]

لكن وبينما تبقى حقيقة أننا نعمل مسألة دون تغيير عبر التاريخ، فإن الطريقة التي نعمل بها والاحتياجات أو الرغبات التي نسعى جاهدين لإشباعها قد تغيرت كثيرا. فعلى مدى ملايين السنين طورت البشرية الأدوات والتقنيات من أجل تحقيق غاياتها بشكل أفضل. لكن تطوير الوسائل لتلبية احتياجاتنا، حتى الأساسية منها، يؤدي بالضرورة إلى خلق احتياجات جديدة، وعلاقات اجتماعية جديدة وأساليب للحياة جديدة تماما. لقد قرر هذا التفاعل المستمر العديد من الأشياء بالنسبة لنا -قرر ما إذا كنا سنتحرك أم نبقى في مكان واحد، ما إذا كنا سنعمل على مدار السنة أو في المواسم- وقد أثر علينا حتى فيزيولوجيا وأثر على تطورنا. ولذلك فإننا بتغييرنا لبيئتنا، نحن نغير أنفسنا، بكل ما تتضمنه الكلمة من معنى. في هذا يكمن أساس كل التقدم البشري.

كان هذا المبدأ الأساسي للمادية التاريخية هو ما لخصه إنجلز في خطابه أمام قبر ماركس، عندما قال:

«تماما مثلما اكتشف داروين قانون التطور أو الطبيعة العضوية، اكتشف ماركس قانون تطور التاريخ البشري: تلك الحقيقة البسيطة، التي بقيت مختفية حتى الآن تحت كومة هائلة من الأيديولوجيا، وهي أن البشرية يجب أولا وقبل كل شيء أن تأكل وتشرب وتوفر المأوى والملبس، قبل أن تتمكن من ممارسة السياسة والعلوم والفن والدين، وما إلى ذلك؛ وبالتالي فإن إنتاج الوسائل المادية المباشرة، وبالتالي درجة التطور الاقتصادي التي حققها شعب معين أو خلال حقبة معينة، تشكل الأساس الذي تقوم عليه مؤسسات الدولة، والمفاهيم القانونية، والفن، وحتى الأفكار المتعلقة بالدين، التي طورها ذلك الشعب المعين، والتي بالتالي يجب تفسيرها في ضوئها».[3]

كتب ماركس في رأس المال المجلد الأول: «إن القدرة على استخدام وتصنيع أدوات العمل، على الرغم من وجودها في شكل بدائي عند أنواع معينة من الحيوانات، هي سمة خاصة بسيرورة العمل البشري»[4]. ويمكن ملاحظة هذا أركيولوجيا طوال مراحل تواجد الإنسان الحديث على هذا الكوكب، بل وحتى قبل ذلك. فبعض أسلافنا الأوائل من أشباه البشر، مثل الانسان الماهر (Homo habilis) والانسان العامل (Homo ergaster)، قد استخدموا أدوات حجرية مصنوعة يدويا. يعود تاريخ مجمع أدوات أولدوان، الذي تم اكتشافه في أولدوفاي جورج في تنزانيا، إلى 2,6 مليون سنة. وطوال مرحلة العصر الحجري القديم (التي تعود إلى ما يقرب من 10.000 عام قبل الميلاد)، نرى ظهور مجمعات أدوات جديدة تلو الأخرى: المجمع الأشولي، والمجمع الموستيراني، والمجمع الشاتيلبيروني، إلخ. ويمكننا، إلى جانب تتبع تطور إنتاج هذه الأدوات، أن نتتبع حتى تطور الوعي والتفكير المعقد. بشكل عام، يكون كل مجمع أدوات أكثر تناسقا ويتطلب تخطيطا مسبقا أكثر من سابقه، مما كان يدفع تطور دماغ الإنسان الحديث إلى مستويات أعلى.

إنه تأكيد إضافي على صحة المنهج المادي إلى درجة أنه حتى علماء الآثار غير الماركسيين مجبرون على تأريخ الماضي على أساس الثقافة المادية التي سادت في كل عصر. ليس من قبيل الصدفة أننا نتحدث عن العصر الباليوليتيكي (Paleolithic) -العصر الحجري القديم- (من العبارة اليونانية القديمة التي تعني "الحجر القديم")، والنيوليتيكي (Neolithic) -العصر الحجري الحديث- ("الحجر الجديد")، والعصر البرونزي، وما إلى ذلك. كل هذه التصنيفات تشير إلى المواد التي كانت تستخدم في صنع الأدوات التي كان يعتمد عليها الإنتاج في ذلك الوقت. وكما يلاحظ ماركس في رأس المال، المجلد الأول، فإنه:

«تمتلك بقايا أدوات العمل القديمة نفس الأهمية في دراسة الأشكال الاقتصادية المنقرضة للمجتمع، مثل الأهمية التي تمتلكها العظام الأحفورية لتحديد الأنواع المنقرضة من الحيوانات. ليست القطع المصنوعة، بل كيفية صنعها، وبأي أدوات، هو ما يمكّننا من التمييز بين مختلف العصور الاقتصادية. لا توفر أدوات العمل معيارا لدرجة التطور التي بلغها العمل البشري فحسب، بل إنها أيضا مؤشرات للظروف الاجتماعية التي تم في ظلها تنفيذ ذلك العمل».[5]

هذه الفكرة البسيطة، لكن الثورية، غير مقبولة بأي حال من الأحوال في المؤسسات الأكاديمية. بل إن هذا المبدأ الأساسي للمادية التاريخية يستقبل، في الواقع، من طرف أعضاء المؤسسات الأكاديمية، بنفس الرعب والسخط الذي استقبلت به نظرية داروين عن الانتقاء الطبيعي في منتديات النقاش الفيكتورية.

والنتيجة هي أن الأوساط الأكاديمية الحديثة تقف بعيدا خلف حتى مستوى فهم الفلاسفة اليونانيين القدماء للمجتمع. لقد اعترف كل من أفلاطون وأرسطو بوجود أساس مادي لوقت الفراغ المتوفر لهما. قال أرسطو، في كتابه "الميتافيزيقيا"، إن الفنون النظرية تطورت في الأماكن التي يتمتع فيها الرجال بوقت فراغ كبير. «وهكذا فقد نشأت العلوم الرياضية في مصر، لأن هناك كانت الطبقة الكهنوتية تتمتع بوقت الفراغ»[6]. يفترض هذا بالضرورة درجة معينة من التطور في إنتاجية العمل، ومعها إعادة تنظيم بنية المجتمع نفسه. وسننتقل الآن إلى تلك البدايات الأولى لهذا التطور.

الشيوعية البدائية

لم يجد علماء الآثار إلا أدلة قليلة جدا على وجود تفاوتات قبل العصر الحجري الحديث، الذي بدأ منذ أقل من 12.000 عام بقليل. الأدلة التي تم جمعها من مواقع العصر الحجري القديم في جميع أنحاء العالم ترسم صورة لمجتمعات صغيرة، متنقلة في الغالب، تعتمد من أجل البقاء على القنص وصيد الأسماك والالتقاط، حيث بالكاد يمكن اكتشاف أي اختلافات في الثروة أو المكانة من الأشياء المدفونة مع الموتى.

بالطبع، لن نستطيع أبدا أن نحدد بالضبط كيف كانت مجتمعات القنص والالتقاط في عصور ما قبل التاريخ. لكن الدراسات الأنثروبولوجية للمجتمعات القائمة على القنص والالتقاط التي ما تزال موجودة، مثل شعب كونغ بصحراء كالاهاري، تقدم لمحة عما قد كانت عليه. كتب عالم الأنثروبولوجيا ريتشارد ليكي:

«ليس للكونغ رؤساء ولا قادة... لا أحد يعطي الأوامر أو يتلقاها... تتغلغل المشاركة بعمق في قيم الكونغ المعتمدين على الالتقاط، تماما كما هو مبدأ الربح والعقلانية أساسي في الأخلاق الرأسمالية».[7]

هناك أدلة موثوقة جدا عن هذه الفكرة في مجتمعات القنص والالتقاط في جميع أنحاء العالم، وتتناسب تماما مع الأدلة التي قدمتها مواقع العصر الحجري القديم. لكن المساواة في ماضينا ما قبل التاريخي لم تكن ظاهرة ثقافية أو أخلاقية بحتة؛ بل جاءت، في الأصل، من حقيقة أنه لم تكن هناك، وما كان من الممكن أن تكون هناك، ملكية خاصة أبعد من حيازة الأدوات والأشياء الشخصية الأخرى. كانت تلك مجموعات من القناصين الملتقطين الناجحين المهرة، لكنهم كانوا يعيشون يوما بيوم أو عاما بعام، ولم يكونوا يراكمون فائضا كبيرا. وعليه فإنه لم يكن هناك أي مفهوم لملكية الأرض أو الميراث.

يمكن رؤية هذا بشكل واضح جدا في ممارسات السكان الأصليين في صحراء أستراليا الوسطى، والتي تُعتبر على نطاق واسع واحدة من أقدم الثقافات التي ما تزال قائمة، والتي تمتد إلى ما قبل 50.000 عام. في الستينيات أمضى عالم الأنثروبولوجيا ريتشارد غولد وقتا في العيش مع مجتمع القنص والالتقاط في وسط أستراليا. أشار إلى أن جميع الأطعمة التي حملت إلى المخيم «تم اقتسامها بدقة بين كل أعضاء المجموعة، حتى ولو تعلق الأمر بسحلية صغيرة»[8]. وبناء على التنقيب في الملاجئ الصخرية المحلية، افترض غولد أن سكان هذه المنطقة قد عاشوا بهذه الطريقة منذ احتلالها لأول مرة من قبل الإنسان العاقل (Homo sapiens). ليس من الصعب اكتشاف المبدأ الكامن وراء هذا الشكل المتطرف، بل وحتى المطلق، للشيوعية، أي: الخصاص الناتج، في نهاية المطاف، عن المرحلة المنخفضة نسبيا من تطور القوى المنتجة وانخفاض مستوى السيطرة على البيئة الطبيعية. وفي حين أن مجتمعات القنص والالتقاط الأخرى لم تواجه مثل هذه الظروف القاسية، فإنه يمكن رؤية نفس المبدأ ساريا في جميع أنحاء العالم الحجري القديم.

النساء في ظل الشيوعية البدائية (دفاعا عن إنجلز)

والسمة الأخرى من سمات المساواة في مجتمع العصر الحجري القديم هي المكانة التي كانت تحتلها النساء. كما قال فريدريك إنجلز في كتابه "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة":

«من بين أكثر الآراء المأخوذة من عصر التنوير في القرن الثامن عشر سخافة اعتبار أن المرأة في بداية تطور المجتمع كانت أمة للرجل. إذ أنه عند جميع المتوحشين وجميع البرابرة خلال المرحلتين الدنيا والوسطى، وإلى حد ما المرحلة العليا أيضا، لم تكن مكانة المرأة حرة فحسب، بل شريفة».[9]

وبالاستناد إلى أحدث الدراسات الأنثروبولوجية في ذلك الوقت، ولا سيما دراسة هنري لويس مورغان للإيروكوا، طرح إنجلز الفكرة الثورية القائلة بأن الاضطهاد المنهجي للنساء هو في الواقع ظاهرة حديثة نسبيا في تاريخ جنسنا البشري. ومن خلال تحليله ليس فقط لمجتمع الإيروكوا، بل وأيضا لمجتمع الأثينيين والرومان والجرمانيين القدماء، قال إن "الهزيمة التاريخية للجنس الأنثوي" كان لها أساس اقتصادي: الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ولا سيما الأرض والقطعان، وتراكمها في أيدي الرجال.

وكما خلص إنجلز فإنه إذا كانت لاضطهاد النساء بداية، فلا بد إذن أن تكون له نهاية. إن تشييد مجتمع شيوعي، بدون ملكية خاصة ولا استغلال طبقي، من شأنه أن يؤسس صرح الحرية والمساواة بين الرجال والنساء على مستوى أعلى من أي وقت مضى. هذا هو المنظور الذي يتسلح به الماركسيون ويلهمهم منذ ذلك الحين في كفاحهم من أجل تحرر النساء.

لكن هذا المنظور الثوري لم يرفضه فقط المدافعون عن النظام الحالي، بل وحتى منظرو ومنظرات الحركة النسوية، الذين يزعمون أن تفسير إنجلز للمجتمع الشيوعي البدائي ليس سوى "أسطورة جميلة". وفي السنوات الأخيرة انضم إلى هذه الهجمات على نظرية إنجلز حتى أولئك الذين يسمون بالأكاديميين "الماركسيين". يجادل كريستوف دارمنجيت، من جامعة باريس، على سبيل المثال، بأن «احتكار الذكور للقنص والأسلحة قد أعطى الرجال في

كل مكان مكانة أقوى مقارنة بالنساء»، مما يعني أن «النساء تعرضن في كل مكان لتقليص دورهن إلى مجرد أدوات في استراتيجيات الرجال».[10]

ما يلفت الانتباه في هذه الحجة هو أنه بينما تزعم تصحيح إنجلز على أساس ما كشفت عنه الأبحاث الحديثة، فإنها لا تعمل سوى على تكرار نفس الافتراض الخاطئ الذي هدمه إنجلز قبل أكثر من 100 عام. الفرضية الأولى لدارمنجيت هي أن القنص والأسلحة كانا دائما حكرا على الذكور. لكن لكي تكون هذه الأطروحة صحيحة، فإنه يجب أن تكون شاملة، أي يجب أن تبرهن على أن هذا الاحتكار المزعوم كان موجودا دائما وفي كل مكان، دون استثناء. لكن هذا التأكيد مستحيل، لأنه يتناقض مع معظم الأبحاث الحديثة، بما في ذلك تلك التي جرت على مجتمعات القنص والالتقاط التي ما تزال موجودة. ففي أغتا بالفلبين[11]، على سبيل المثال، من المعروف أن النساء يمارسن القنص باستعمال السلاح. وبالعودة أكثر إلى الماضي تصبح الصورة أكثر تعقيدا، مع الاكتشاف الأخير لمعدات القنص في قبر أنثى شابة بالغة في جبال الأنديز[12]، يعود تاريخها إلى حوالي 7000 عام قبل الميلاد، وصور لنساء يمارسن القنص بالرماح في رسومات قديمة بكهوف في برزاهوم، الهند، يعود تاريخها إلى حوالي 6000 عام قبل الميلاد[13]. ومع ذلك فإنه حتى إذا قبلنا بأن القنص كان عادة حكرا على الذكور، فإن حجة دارمنجيت تحتوي على تزيف للحقيقة أكثر ضررا بكثير، أي: الافتراض بأنه أينما كان هذا هو الحال، فإنه يتم اختزال مكانة النساء إلى "مجرد أدوات".

لا يمكن لأي ماركسي أن ينكر وجود اختلافات طبيعية بين الرجال والنساء، وبالتالي وجود شكل من أشكال تقسيم العمل بين الجنسين في جميع المجتمعات. وحقيقة أن النساء يحملن ويلدن أطفالا هي من الأمثلة الواضحة على ذلك. قد يعني هذا، حسب البيئة والموارد الطبيعية للمجتمع، أن الرجال هم من يبتعدون عن المخيم، للمشاركة، على سبيل المثال، في رحلات القنص، بينما تميل النساء إلى التركيز على التقاط الموارد بالقرب من المأوى، والعناية بالأبناء. لوحظ مثل هذا التقسيم للعمل بين الكونغ، على سبيل المثال[14]. لكن النقطة الحاسمة هنا هي أنه في مثل تلك المجتمعات، لا يمكن اعتبار احتلال موقع مختلف في تقسيم العمل، في تلك المرحلة المبكرة، دليلا على الاضطهاد أو الاستغلال من قبل قسم آخر من المجتمع. بل إن جميع الأدلة المتاحة تشير إلى عكس ذلك تماما.

وفي إشارة منها إلى مجمع الكونغ كتبت باتريشيا درابر قائلة:

«رجال ونساء مجموعات الالتقاط متساوون في تعاملهم مع بعضهم البعض. عادة ما يتواجدون في مجموعات مختلطة الجنس في المخيم، على الرغم من أن عملهم يتم عادة في مجموعات من نفس الجنس. لا تبدي النساء الاحترام للرجال. وإذا يعيشون في مجموعات صغيرة بدون أدوار قيادية متطورة، يتوصلون إلى اتخاذ القرارات بالتوافق بعد نقاشات تشارك فيها النساء إلى جانب الرجال».[15]

لا يمكن اعتبار النساء الموصوفات هنا بأنهن "أدوات" لأي كان. بل على العكس تماما. ففي العديد من الحالات، مثل حالة الكونغ، فإن النباتات التي تجمعها النساء «تساهم بنسبة تصل إلى 80% من المدخول الغذائي اليومي للمجتمع»، و«على عكس القناصين الذكور، تحتفظ الإناث بالسيطرة على التوزيع النهائي للأطعمة التي جمعنها»[16].

يجادل عالم الأنثروبولوجيا كريس نايت بأنه في العديد من مجتمعات القنص والالتقاط «لن يحصل الشاب أبدا على حقوق جنسية دائمة مع المرأة التي يزورها بانتظام. بل يجب عليه العمل المستمر على الحصول على الموافقة من خلال تسليم كل لحومه التي يصطادها إلى حماته لتوزعها كما تشاء»[17]. مرة أخرى نتساءل من الذي يتحكم في من هنا؟

كما أن حيازة الأسلحة، أو القوة الأكبر، لا تؤدي بالضرورة إلى العنف ضد النساء. وجدت إحدى الدراسات، التي أُجريت عام 1989، أن شعب سان التقليدي، من البدو أو شبه الرحل، كان «واحدا من ستة مجتمعات فقط في العالم لم يُسمع فيها عن العنف المنزلي مطلقا تقريبا»[18]. هذه حقيقة مدهشة للغاية عندما ينظر المرء إلى جائحة العنف الدائم ضد النساء الذي يودي بحياة عشرات الآلاف من النساء كل عام في جميع أنحاء العالم.

إن صورة الرجال على أنهم "المعيلون" المهيمنون والنساء على أنهن "ربات بيوت" خاضعات، هي صورة عفا عليها الزمن -مفهوم خاطئ عن عصور ما قبل التاريخ مأخوذ مباشرة من سلسلة آل فلينستون الكرتونية. واستمرار هذه الفكرة ليست له أية علاقة بالعلم أو بالبحث التاريخي. إنها مجرد انعكاس لحقيقة أن أولئك الذين يروجون لهذه الأسطورة هم غير قادرين على الارتقاء فوق مفاهيم وتحيزات المجتمع الطبقي الحالي. وإذا قبلت بتحيزات المجتمع الطبقي، فيجب عليك في نهاية المطاف قبول استنتاجاته، ورفض ليس فقط إمكانية المساواة بين الرجال والنساء، بل حتى إمكانية إنشاء مجتمع أكثر مساواة بشكل عام. وهذا يعني أن هذه الحجة "العلمية" المزعومة إنما تتلخص في النهاية في شيء واحد فقط وهو: أزلية المجتمع الطبقي إلى الأبد، آمين.

بدايات الزراعة

أحيانا ما يُطرح السؤال حول كيف يمكن للبشر أن ينتقلوا من هذا المجتمع الشيوعي البدائي، الطوباوي على ما يبدو، إلى مجتمع يتم فيه اضطهاد الغالبية العظمى من الناس. حتى أن عالم الأنثروبولوجيا، مارشال ساهلينز، قد صاغ مصطلح "مجتمع الرخاء الأول"، بناء على دراسته لمجموعات القنص والالتقاط، والتي خلص فيها إلى أن كل فرد بالغ مضطر للعمل من ثلاث إلى خمس ساعات فقط في اليوم لجمع ما يكفي من الموارد. وفي حين أنه من المحتمل أن يكون هذا مجرد مبالغة، بناء على تعريف ضيق لمفهوم العمل، فإنه يثير التساؤل حول فكرة أن مجتمعات القنص والالتقاط كانت دائما على حافة المجاعة. لكن ورغم أنه يجب أن نرفض أسطورة هوبز عن الحياة [البدائية] باعتبارها كانت دائما "بغيضة ووحشية وقصيرة" قبل تحريرها بواسطة القمع الحضاري للدولة، فإنه يجب علينا أيضا أن نكون حذرين من ثني العصا بقوة في الاتجاه الآخر.

لم تعش مجتمعات العصر الحجري القديم في جنة من الصحة والوفرة. كانت مجتمعات العصر الجليدي قليلة صغيرة بالضرورة، فاقدة لليقين وضعيفة التحكم في ظروف وجودها. كان معظمهم يستهلكون طعامهم في غضون ساعات أو أيام، مما يشير إلى وجود فائض إنتاج محدود للغاية، هذا إن وجد أصلا. كان متوسط العمر المتوقع لمعظم مجتمعات القنص والالتقاط منخفضا، فضلا عن معدل مواليد منخفض. وحتى بعد انتهاء العصر الجليدي الأخير، حوالي 9700 قبل الميلاد، استمرت مجتمعات القنص والالتقاط تواجه الندرة والمشاق. ولإعطاء مثال واحد فقط عن ذلك فإن العمر التقديري لوفاة جميع الهياكل العظمية الـ13 التي تم العثور عليها في موقع مهاداها في الهند، والذي يرجع تاريخه إلى 4000 عام قبل الميلاد، كان بين 19 و28 سنة، لكن "ربما يكون أقرب إلى 19 سنة"[19]. لم يتجاوز أي منهم سن الخمسين. ففي ذلك الوقت، كما هو الحال الآن، كان محرك التنمية هو الصراع من أجل وسائل البقاء والازدهار في مواجهة الشدائد، أي "إنتاج وإعادة إنتاج الضروريات المباشرة للحياة".[20]

ومثلما شجعت الحاجة إلى تحسين الطرق التي كان يستعملها البشر لجمع الموارد على تطوير الأدوات الحجرية، فقد دفعت البشر أيضا للبحث عن مصادر غذائية أكثر تنوعا وموثوقية. أخذت هذه السيرورة ديناميتها الخاصة بها مع بدأ المناخ العالمي في الاحترار منذ ما يقرب من 20.000 عام. في ذلك العصر أدى ارتفاع درجات الحرارة ومستويات الرطوبة، جنبا إلى جنب مع تراجع الصفائح الجليدية، إلى فتح مناطق بأكملها أمام البشر وزيادة

وتنوع كبيرين لكمية الموارد المتاحة أمامهم. وبدافع من بيئتها المتغيرة، طورت مجتمعات القنص والالتقاط بسرعة وسائل جديدة وأكثر تعقيدا للحصول على تلك الموارد، مما أدى إلى تطور عظيم للقوى المنتجة.

تم استبدال الأدوات الحجرية القديمة مثل الفؤوس اليدوية بـ"الميكروليث"، وهي أدوات حجرية أصغر بكثير مثل المثاقب ورؤوس السهام[21]. صُقلت العظام على شكل إبر دقيقة لرتق أنواع مختلفة من الفراء معا، وصنع الملابس الدافئة التي استخدمها البشر لاستيطان براري سيبيريا الجليدية[22]. تم نحت الحراب من قرون الرنة من أجل استغلال توافر الأسماك بشكل أفضل[23]. وتم تصنيع السلال لصيد الأنقليس[24]. كانت تلك قفزة نوعية، وكمية أيضا، في إنتاجية العمل البشري ونطاقه.

وبالإضافة إلى القنص وصيد الأسماك، استفاد البشر أيضا من الأطعمة النباتية البرية التي بدأت في الازدهار في المناخ الأكثر دفئا ورطوبة. يعود تاريخ أول حصاد معروف للأعشاب البرية إلى العصر الجليدي الأخير، حوالي 21.000 قبل الميلاد، في أوهالو في إسرائيل الحالية. وبحلول حوالي 14.000 عام قبل الميلاد، بدأت زراعة قمح الإيمر والإينكورن البريين والشعير تنتشر في جميع أنحاء المنطقة. هذا التطور، الذي بدا في ذلك الوقت على أنه مجرد مكسب صغير فقط، شكل البداية المبكرة لسيرورة من شأنها أن تغير بشكل لا رجعة فيه علاقة البشر بالعالم الطبيعي، وتغير معها الحياة البشرية نفسها.

كانت الزراعة الأولى للحبوب، والنباتات الأخرى، ما تزال بعيدة عن الإنتاج الزراعي الذي شهده العصر الحجري الحديث. ففي معظم الحالات كان ذلك أقرب كثيرا إلى شكل من أشكال "البستنة البرية"، حيث يقوم المزارعون بزيارة منتظمة للمواقع التي كان من المعروف أن تلك النباتات تنمو فيها حتى يتمكنوا من جمع ما هو متاح منها. لكن وحتى من خلال ذلك الشكل الذي يبدو التقاطا سلبيا، كان البشر يغيرون الطبيعة بنشاط بطرق واعية ولا واعية.

العديد من النباتات والحيوانات التي نعتمد عليها اليوم موادا أساسية لم تكن موجودة دائما. فالذرة والفاصوليا والكوسا ومحاصيل الحبوب الأساسية، بل وحتى الخنازير والأغنام والماشية كما نعرفها اليوم، تطورت بفعل التدخل البشري في الطبيعة منذ آلاف السنين. وعلى سبيل المثال فقد كانت الأعشاب البرية التي تمت زراعتها في أماكن مثل أوهالو تمتلك حبيبات أصغر بكثير من القمح الذي نستهلكه اليوم. ويشير اكتشاف الحبوب الأكبر في منطقة الجرف الأحمر في سوريا الحالية، منذ 13.000 عام قبل الميلاد، إلى أن البشر كانوا يعيدون الزراعة بحبوب أكبر من أجل تحسين الإنتاجية.[25]

والأهم من ذلك هو أن سنابل تلك الحشائش القديمة كان تسقط وتنتشر تلقائيا في أوقات مختلفة، مما يزيد من فرص تكاثرها بنجاح. لكن ما هو جيد للحشائش ليس بالضرورة جيد للملتقط، إذ من المحتمل أن تضيع نسبة كبيرة من المحصول قبل وصول موعد الحصاد. سنابل الحبوب الحديثة أكثر تماسكا، مما يعني أنها ستبقى في مكانها حتى يأتي شخص ما لحصادها. لقد كان هذا التحول البيولوجي نتاجا لتدخل وابتكار البشر. وفي ظل الظروف المناسبة يمكن للضغط الانتقائي الناتج عن التحسينات المقصودة في تقنية الملتقطين أن يظهر في شكل تطور أنواع جديدة من القمح والشعير، والذي هو بحد ذاته تطور عظيم لقوى الإنتاج.

ثورة العصر الحجري الحديث

بفضل هذه الموارد المتزايدة وتحسين الأدوات والتقنيات التي عرفتها تلك الفترة، بدأت أولى المستوطنات البشرية في الظهور. من المحتمل أن تلك المستوطنات كانت في البداية عبارة عن معسكرات شبه دائمة أو موسمية، كان البشر يعودون إليها بانتظام أكثر فأكثر، مثل ستار كار في بريطانيا (الذي يعود تاريخه إلى حوالي 9000 عام قبل الميلاد)[26]. لكن وفي النهاية ستشهد تلك الفترة ظهور أولى القرى الدائمة في العالم. يمكن العثور على مثال مبكر على ذلك في موقع "ناتوفيان" في عين ملاحة في بلاد الشام (والذي يعود تاريخه إلى ما يقرب من 12.500 عام قبل الميلاد)، حيث استقر البشر بشكل دائم، معتمدين على قنص الغزلان إلى جانب زراعة القمح البري والشعير. [27]

ومع ذلك فحتى في أعلى مراحل العصر الحجري القديم (حرفيا "العصر الحجري القديم المتأخر")، كانت المستوطنات الدائمة نادرة جدا، ولا يمكن العثور عليها إلا في المواقع ذات الظروف الطبيعية المواتية بشكل استثنائي، مثل عين ملاحة، أو في مناطق سمك السلمون في شمال غرب المحيط الهادئ. في تلك المرحلة كان من الصعب جدا، وفي بعض الحالات من المستحيل، خلق ظروف مماثلة في أماكن أخرى، وبالتالي فقد بقيت الطبيعة هي التي تحدد في النهاية موقع المستوطنات ووسائل العيش. لكن التطورات التي كانت تحدث في ذلك الوقت كانت تمهد الطريق لتحول هائل سيصبح فيه الاستثناء هو القاعدة.

لعبت الأزمات، في كثير من الأحيان في التاريخ، دور المحفز لسيرورات التغيير العميقة التي تتطور تحت السطح. يمكن أن تكون هذه الأزمات داخلية أو خارجية. قبل تطوير الزراعة في الشرق الأدنى، أصبح العالم أكثر برودة بشكل ملحوظ، في عودة إلى الظروف الجليدية المعروفة باسم العصر الجليدي المصغر (Younger Dryas) (حوالي 11.000 – 9.700 عام قبل الميلاد). مع تعطل هجرات القطيع وظهور الأعشاب البرية، أصبح أسلوب حياة الاستقرار مستحيلا لكثير من الشعوب. من الأكيد أن البعض منهم قد عانوا خطر الموت بينما اضطر الكثيرون إلى العودة إلى أسلوب حياة أكثر حركية. لكن التطور السابق، الذي تراكم تدريجيا على مدى آلاف السنين، لم يضع.

عندما هجر البشر المستوطنات المحتضرة أخذوا معهم حبوبهم وزرعوها في مواقع جديدة تماما. ويُعتقد أن إنشاء حقول جديدة والاعتماد الكبير لبعض المجتمعات على زراعة الحبوب، باستخدام منجل الصوان، قد أدى إلى تسريع عملية الانتقاء الطبيعي والاصطناعي الذي أدى في النهاية إلى ظهور قمح مدجّن بالكامل[28]، ومعه تطورت وسائل التغلب على حدود المستوطنات القديمة التي كانت تعتمد على القنص والالتقاط. يمكننا أن نرى هذه السيرورة بوضوح في منطقة أبو هريرة، في سوريا الحالية، حيث تكيف البشر مع المناخ البارد من خلال الزراعة المكثفة للجاودار البري، مما أدى إلى ظهور أقدم حبوب مدجنة حتى الآن، والتي يعود تاريخها إلى حوالي 10.500 قبل الميلاد[29].

منذ حوالي 9500 عام قبل الميلاد، عاد البشر في بلاد الشام وجنوب شرق تركيا إلى حياة الاستقرار، لكن على مستوى أعلى من الناحية النوعية هذه المرة، على أساس الحبوب والحيوانات المدجنة مثل الأغنام والماعز، والتي تغيرت هي أيضا بفعل التدخل الواعي للبشر القناصين الذين تحولوا إلى رعاة. ومع حوالي 8000 عام قبل الميلاد، انتشرت طريقة الحياة الجديدة تلك في جميع أنحاء الشرق الأدنى، وسرعان ما بدأ اعتمادها في أوروبا وجنوب آسيا. نشأت الزراعة المستقرة أيضا في أماكن أخرى بشكل مستقل، بما في ذلك الصين وأجزاء عديدة من إفريقيا والأمريكيتين. أطلق عالم الآثار الماركسي، ف. غوردون تشايلد، على هذه السيرورة اسم "ثورة العصر الحجري الحديث".

بالنسبة للأكاديميين البرجوازيين يعتبر وصف أي شيء بأنه "ثورة"، عملا ماركسيا غير محتمل بالنسبة لكتاب في علم الآثار. ويقترحون، بدلا من ذلك، بأنه يجب الإشارة إلى التدجين وتطوير الزراعة باسم "انتقال العصر الحجري الحديث"، لأنه كان سيرورة تطورت على مدى فترة طويلة من الزمن. هذه طريقة صبيانية لفهم التاريخ. لقد حدث الانفجار الكمبري (ذلك العصر من التنوع السريع للحياة الحيوانية المعقدة ومتعددة الخلايا) على مدى عشرة ملايين سنة، لكنه رغم ذلك يعتبر انفجارا مقارنة بملايير السنين من التطور شديد البطء الذي سبقه. كانت ثورة العصر الحجري الحديث بمثابة تحول هائل وسريع مشابه من وجهة نظر المجتمع البشري. لقد كان الإنسان العاقل موجودا منذ حوالي 300.000 عام، لكن تلك التطورات حدثت في بضعة آلاف من السنين فقط وكانت ثورية حقا، مما أدى إلى ميلاد طريقة جديدة للحياة، ونمط جديد للإنتاج ، ومعهما مرحلة جديدة في تاريخ الجنس البشري.

دور الأفكار

وهناك اعتراض آخر على مصطلح ثورة العصر الحجري الحديث يهاجم نتائجه المادية. بالنظر إلى تلك السيرورات من مسافة زمنية تزيد عن 10.000 عام، يكون من السهل رؤية التأثير العميق للتطورات التي خلفها العمل البشري والتقنية على كل من الطبيعة والمجتمع. لكن ومثلما تفوح فكرة "ثورة" العصر الحجري الحديث برائحة ماركسية أكثر مما تتحمله المؤسسة الأكاديمية اليوم، فإن هذا التأكيد على الأفكار الأساسية للمادية التاريخية أكثر من أن تتحمله العقول "العلمية". فعلى سبيل المثال، يجادل أنتوني غيدينز، عالم الاجتماع الذي يقف وراء نظرية "الطريق الثالث" لتوني بلير، بأنه نظرا لأن الاستيطان يسبق وصول الزراعة في بعض الأماكن، فإنه لا يمكن اعتبار تطور القوى المنتجة العامل المحدد في ثورة العصر الحجري الحديث، والتاريخ عموما. يكتب غيدينز:

«الحياة الاجتماعية البشرية لا تبدأ ولا تنتهي في الإنتاج. وعندما يطلق مومفورد على الإنسان لقب "الحيوان صاحب العقل والسيطرة الذاتية والتصميم الذاتي"، وعندما يرى فرانكل في حياة الإنسان "بحثا عن المعنى"، فإنهما أقرب إلى توفير الأساس للأنثروبولوجيا الفلسفية للثقافة الإنسانية مما كان عليه ماركس».[30]

وقد زُعم مؤخرا أن الموقع المكتشف حديثا نسبيا في غوبيكلي تيبي، بجنوب شرق الأناضول، تركيا الحالية، يقدم المزيد من الأدلة على هذا المفهوم المثالي للتاريخ. يعود تاريخ الموقع إلى 9600 عام قبل الميلاد، في بداية العصر الحجري الحديث، ويتميز بوجود مذابح حجرية كبيرة تشير بوضوح إلى وجود درجة من التخصص ووقت عمل فائض لتكريسه لبناء الموقع. كما أن هناك أيضا الكثير من الأدلة التي تشير إلى أن هذا الموقع كان قيد الاستخدام على مدار السنة. إلا أن وفرة عظام الحيوانات البرية وغياب الحيوانات المدجنة تشير إلى أن الناس الذين بنوا ذلك "المعبد" كانوا يعيشون على القنص والالتقاط. لقد أدى هذا الاكتشاف الرائع إلى فورة من المقالات المبتهجة التي تعلن موت النظرة المادية للتاريخ. وقيل إنه بدلا من اعتبار أن الاستقرار يأتي بفعل تطور الزراعة، أو أي شيء آخر متعلق بالإنتاج، فإن البشر استقروا أولا لأغراض دينية ثم طوروا الزراعة كوسيلة لإطعام المتعبدين. وقد أعلن عالم الآثار الرئيسي في الموقع، كلاوس شميدت، «**أعتقد أن ما نتعلمه هو أن الحضارة هي نتاج العقل البشري**».[31]

لكن الفكرة القائلة بأن الحضارة هي "نتاج للعقل" ليست بذلك العمق الذي يعتقده كاتبها. فالمحرك البخاري هو أيضا نتاج للعقل، وكذلك نظام المصنع. ومنجل الصوان نتاج للعقل. وإذا أراد حتى أكثر الماديين تشددا أن يعد وجبة طعام لنفسه، فإنه يقوم بذلك لأن لديه فكرة القيام بذلك. لكن كل هذا لا يخبرنا بأي شيء على الإطلاق سوى الحقيقة غير المثيرة للجدل بأن كل تلك الأشياء نتاج لبشر واعين.

وعلى حد تعبير إنجلز: «**كل ما يحركه الناس يجب أن يمر في أذهانهم؛ لكن الشكل الذي سيتخذه ذلك في العقل سيعتمد إلى حد كبير على الظروف**»[32]. من الضروري أن نتساءل لماذا اختار هؤلاء الناس، الذين بنوا غوبيكلي تيبي، بناء مكان عبادة كبير ودائم في المقام الأول، ثم لماذا اختاروا اللجوء إلى زراعة القمح لإعالة أنفسهم. لقد كانت الطقوس مهمة طوال العصر الحجري القديم وما بعده باعتبارها وسيلة لفهم العالم الطبيعي والتحكم فيه، ويعود حصاد القمح البري إلى 23.000 عام، وبالتالي لماذا لم يحدث تطور مماثل خلال العصر الجليدي الأخير؟ لا يمكن العثور على تفسير هذا في نهاية المطاف إلا في تطور القوى المنتجة، أي: علاقة البشر بالطبيعة، بوساطة العمل وأدواته وتنظيمه وتقنيته.

لقد تم إعداد وسائل الزراعة الدائمة للمحاصيل والحيوانات المستأنسة داخل مجتمعات القنص والالتقاط القديمة على مدى آلاف السنين قبل بناء غوبيكلي تيبي. وكما سبقت الاشارة فقد تم تتبع ظهور حبوب الجاودار المدجنة حتى 10.500 عام قبل الميلاد. وعلاوة على ذلك فقد كشفت الحفريات الحديثة في الموقع عن أدلة على وجود كل من المباني المحلية[33] واستهلاك الحبوب البرية[34]، وهو ما أغفله أو تجاهله منهج شميدت المثالي. هذا يعني أن غوبيكلي تيبي لم يكن مجرد معبد: لقد كان مستوطنة تحولت في النهاية إلى الزراعة باعتبارها وسيلة للتغلب على حدود الإنتاج القائم على القنص والالتقاط. ولا يعمل هذا إلا على تعزيز الاستنتاج القائل بأن المذابح الرائعة والممارسات الدينية للناس الذين عاشوا هناك كانت لها قاعدة مادية. ومثلما هو حال سكان تل أبو هريرة، الذين تحولوا إلى الزراعة المكثفة للجاودار في مواجهة الشدائد، فإن الثقافة التي خلقت غوبيكلي تيبي تمثل نقطة حاسمة في ثورة العصر الحجري الحديث، حيث تنعكس ضرورة وجود شكل جديد من التنظيم الاجتماعي في التصرفات الواعية للأفراد. هذا هو مسار أي ثورة اجتماعية حقيقية. حيث أن أفكار هؤلاء الناس ورغباتهم ومفاهيمهم الدينية لم تنبثق بشكل سلبي ومباشر من أدواتهم -لقد كانت نتاج عقول البشر الحقيقيين والفاعلين- وكان من المؤكد أن يكون لها تأثير حاسم على الشكل الذي اتخذته هذه السيرورة. لكن المحتوى الحقيقي لهذه السيرورة قد توفر من خلال التغيرات التي حدثت في بيئتهم ومجتمعهم والعمل الذي تأسست عليه: «ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم»[35].

عالم جديد

كتب ماركس في رأس المال: «حقب تاريخ المجتمع، مثلها مثل العصور الجيولوجية، ليست مفصولة عن بعضها البعض بحدود صارمة ومجردة»[36]. وفي هذا السياق فقد ظهرت القرى الأولى في العصر الحجري الحديث شبيهة جدا ببعض مستوطنات القناصين والملتقطين التي ظهرت في نهاية العصر الحجري القديم. بل وفي بعض الحالات، كان من الممكن أن تكون هناك مجتمعات في العصر الحجري الحديث متنقلة نسبيا، استقرت مؤقتا لزراعة قطعة أرض، ثم تنتقل إلى قطعة أرض جديدة بعد استنزاف التربة بعد عدة مواسم، مثلما لاحظ مورغان عند الإيروكوا. لقد استمرت أنشطة القنص وصيد الأسماك والالتقاط إلى جانب زراعة الحبوب. ولا بد أن الأمر قد استغرق عدة مئات من السنين قبل أن تصبح التغييرات الأساسية التي تحدث في المجتمع واضحة.

من بين التغييرات التي حدثت هناك زيادة ملحوظة في حجم وعدد المستوطنات. يُعتقد أن متوسط ما كانت تضمه مستوطنة ناتوفيان هو ما بين 100 و150 شخصا، وهو عدد كبير وفقا لمعايير مجتمعات القنص والالتقاط، لكنه صغير مقارنة بمستوطنات العصر الحجري الحديث، التي نشأت منذ 9500 عام قبل الميلاد فصاعدا. يمكن حتى لقرية صغيرة من العصر الحجري الحديث أن تضم حوالي 250 شخصا[37]، أي ضعف متوسط مستوطنة ناتوفيان تقريبا. مستوطنة أريحا، التي هي ربما أقدم مستوطنة حتى الآن، كان يعيش فيها ما يصل إلى 1000 نسمة حوالي 9000 عام قبل الميلاد، أي بعد بضع مئات من السنين فقط على بداية العصر الحجري الحديث. لم يكن من الممكن تحقيق ذلك إلا على أساس قفزة هائلة في قوى الإنتاج.

لم تكن مستوطنات الزراعة المستقرة تفضل فقط تركيزا أكبر للسكان، بل لقد عززت أيضا النمو السكاني بشكل عام. هذه الميزة الإنجابية قابلتها إلى حد كبير المعدلات المرتفعة لوفيات الأطفال وانخفاض متوسط العمر المتوقع بشكل عام لمزارعي العصر الحجري الحديث، بسبب اتباع نظام غذائي أضيق وانفجار أمراض لم تكن معروفة من قبل، وهو الجانب المظلم للحياة المستقرة التي تضع أحيانا آلاف الناس والحيوانات قرب بعضهم البعض. ومع ذلك فعلى الرغم من المشاكل التي جاءت مع أسلوب حياة الاستقرار الجديدة، فقد استمر ارتفاع معدل الولادات في خلق مستوطنات زراعية أكبرا حجما وأكثر انتشارا على حساب مجموعات البدو القناصين الملتقطين. في بريطانيا يُعتقد أن المهاجرين القاريين قد أدخلوا الزراعة منذ حوالي 4000 عام قبل الميلاد، ليعوضوا طريقة الحياة القديمة على الجزيرة بأكملها في مدة ألفي عام[38]، وهي فترة قصيرة جدا وفقا لمعايير ما قبل التاريخ.

ومع تغير نمط إنتاج الحياة المادية، تطورت أيضا أشكال أيديولوجية ودينية جديدة. من بين الأمثلة على ذلك ظهور ما يُفسَّر على أنه عبادة الأسلاف، مثل الجماجم المغطاة بالجبس الموجودة في أريحا ودفن الأقارب المتوفين في أرضيات المنازل[39]. إن فكرة بقاء أسلاف المرء مع العائلة، حرفيا داخل المنزل في بعض الأحيان، لحماية أقاربهم الأحياء، مثبتة بشكل جيد في الثقافة الصينية منذ العصور القديمة أيضا. ويتناسب هذا تماما مع الاستمرارية المقصودة للأسرة التي تعمل في نفس الأراضي.

بدأ الانتقال إلى الزراعة المستقرة في التأثير أيضا على تقسيم العمل داخل الأسرة. كان ارتفاع معدل المواليد بشكل كبير يعني أن النساء يقضين وقتا أطول في حمل الأطفال وولادتهم ورعايتهم، مما يعني أنه لم يعد لهن الوقت الكافي للعمل في الحقل. وتشير الدلائل من عدد من مواقع العصر الحجري الحديث إلى أنه في العديد من الأماكن، أدى هذا التطور، إلى جانب ضرورة العمل المكثف والإشراف المستمر الذي تتطلبه الحقول والقطعان، إلى تقسيم أكثر صرامة للمسؤوليات داخل الأسرة.

ومع تزايد أهمية زراعة الحبوب، تزداد أيضا أهمية معالجة القمح والشعير. في موقع تل أبو هريرة المذكور أعلاه، وجدت الهياكل العظمية النسائية مصابة بالتهاب المفاصل في أصابع أقدامهن لأنهن كن يمضين ساعات طويلة منحنيات، وهن يتأرجحن للخلف والأمام، ويستخدمن وزن أجسامهن لطحن الحبوب وتحويلها إلى دقيق[40]. وقد تم اكتشاف تقسيم مماثل للعمل في موقع من العصر الحجري الحديث في الصين، يعود تاريخه إلى 5000-6000 قبل الميلاد، حيث تضم مدافن الذكور "أدوات حجرية للزراعة والقنص"، في حين أن مقابر الإناث "تفتقر إلى هذه الأنواع من القطع الأثرية، لكنها تحتوي على أدوات لطحن القمح".[41] دفعت هذه الأدلة، إلى جانب دراسات أخرى، بالعديد من علماء الأنثروبولوجيا إلى الربط بين صعود الزراعة المستقرة وبين اتجاه النساء إلى أداء "العمل البيتي" في المنزل.

لكن هذا "العمل البيتي" لم يكن بأي حال من الأحوال ثانويا أو هامشيا مقارنة بعمل الرجال. غالبا ما كانت منازل العصر الحجري الحديث تمتلك أماكن خاصة للنسيج. وعلى الرغم من أن صنع الأدوات عادة ما يتم تصويره على أنه "عمل الرجال"، فإنه كان يتم أيضا حول البيت أو القرية، وكان في كثير من الحالات يقع على عاتق نساء الأسرة. في الواقع تشير الدراسات الأنثروبولوجية لمجتمع كونسو، وهي مجموعة إثنية زراعية إلى حد كبير، توجد في إثيوبيا، والتي يعتبر دباغو الجلود فيها من آخر الأشخاص في العالم الذين يستخدمون أدوات الصوان على نطاق واسع، إلى أن النساء في هذه المجتمعات هن عادة صناع الأدوات[42]. كان منزل العصر الحجري الحديث بمثابة ورشة عمل مثلما هو مأوى، وتشير الأدلة إلى أن النساء كن في مركزه.

لم يكن التحول في تقسيم العمل داخل الأسرة تلقائيا ولا مطلقا. هناك الكثير من الأدلة على المجتمعات التي يؤدي فيها الرجال والنساء كميات متساوية تقريبا من العمل داخل الأسرة وخارجها، مثلما يؤكد ذلك الموقع الحجري الحديث المهم للغاية في تشاتالهويوك[43]، بتركيا الحالية. كما أنه كانت هناك أيضا العديد من المجتمعات التي شكلت فيها الزراعة اختصاصا للنساء وليس الرجال، مثل مجتمع الإيروكوا الذي درسه مورغان. لذلك سيكون من المبالغة في التبسيط والخطأ إقامة صلة تلقائية وفورية بين الزراعة بشكل عام وبين ميل النساء إلى المزيد من العمل في المنزل. وعلاوة على ذلك لا يمكننا تفسير هذه التغييرات في تقسيم العمل داخل الأسرة بكونها دليلا ثابتا على الاضطهاد المنهجي للنساء والنظام الأبوي الذي صار السمة المميزة لجميع الشعوب "المتحضرة" فيما بعد. وبينما كانت النساء تتجهن أكثر فأكثر إلى العمل في المنزل، فإن عملهن كان ذا قيمة عالية في مجتمعهن وكن يتمتعن بنفس المكانة التي يتمتع بها الرجال. وقد تم العثور على العديد من مقابر العصر الحجري الحديث التي تحتوي على عدد متساو من الذكور والإناث، مع عدم وجود تمييز ملحوظ في الثروة أو المكانة، مثل مقبرة ميدهوي كيرن في أوركيني.[44]

إن ما يشير إليه موقع تل أبو هريرة وغيره من مواقع العصر الحجري الحديث هو الظهور المبكر والجنيني لعلاقات جديدة داخل مجتمع العصر الحجري الحديث، والتي كانت تميل إلى وضع النساء في المنزل بشكل أكثر فأكثر انتظاما. هذا التحول في تقسيم العمل لم يؤد في حد ذاته إلى وضع النساء في حالة تبعية أو اضطهاد، لكن وفي سياق المزيد من التطور، ومع تزايد كثافة العمل والإشراف في الإنتاج الزراعي، أصبح هذا الاتجاه أكثر وضوحا، ووضع الأساس في نهاية المطاف لتحول أكبر في العلاقات بين الرجال والنساء. لكن هذا لم يكن ليحدث خلال العصر الحجري الحديث نفسه؛ تطلب ذلك ميلاد المجتمع الطبقي قبل أن تتحول هذه التطورات إلى اضطهاد منهجي للنساء.

مشاعة القرية

على الرغم من العلامات الجنينية لبروز اللامساواة في العصر الحجري الحديث، فإن العلاقات الاجتماعية كانت ما تزال مشاعية بطبيعتها، حيث لا نرى سوى أدلة قليلة جدا، إلى منعدمة، على وجود الملكية الخاصة أو الاستغلال الطبقي أو وراثة الثروة. يوضح إنجلز الهياكل الاجتماعية لتلك المجتمعات غير الطبقية في كتابه أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة:

«لا جنود ولا درك ولا شرطة ولا نبلاء ولا ملوك ولا حكام ولا محافظين ولا قضاة ولا سجون ولا دعاوى قضائية، كل شيء يأخذ مجراه بسلاسة... تتم العناية بالبيت من قبل عدد من العائلات بشكل مشترك ومشاعي، والأرض ملك للقبيلة، وحدها الحدائق الصغيرة مخصصة مؤقتا للأسر -ومع ذلك ليست هناك حاجة ولو لجزء بسيط من جهازنا الإداري المعقد مع جميع تشعباته. لا يمكن أن يكون هناك أي فقير أو محتاج، فالأسرة الجماعية والعشائر تعرف مسؤولياتها تجاه المسنين والمرضى ومعطوبي الحرب. الجميع متساوون وأحرار، بمن فيهم النساء. لا يوجد مكان بعد للعبيد، ولا وجود، كقاعدة عامة، لإخضاع القبائل الأخرى».[45]

على غرار مورغان، وصف إنجلز هذه المرحلة من تطور المجتمع البشري بـ"البربرية"، التي بدأت بتطور الزراعة وتدجين الحيوانات وصنع الفخار. وبالنسبة للناس الذين كانوا يعيشون في تلك المجتمعات الزراعية المبكرة، والذين احتفظوا بالأخلاق والمعايير الثقافية للمشاعة، كان من غير الوارد التفكير في أي طريقة أخرى للعيش.

من بين الأدلة المهمة التي تشير إلى ذلك هو ظهور مجموعات الدفن، حيث كان يتم دفن جميع الأفراد بشكل جماعي دون اعتبار للتمييز الاجتماعي أو المكانة. يضم موقع ميدهو كيرن في أوركني، المشار إليه أعلاه، ما لا يقل عن 25 فردا مدفونين معا. إن مقبرة مكتظة مثل هذه، مع غرف حجرية متعددة ومنفصلة، لا تعكس غياب الاحترام للأفراد المدفونين بداخله، بل تتوافق مع أخلاق المجتمع الذي كان في حد ذاته مشاعيا.

حتى مستوطنات العصر الحجري الحديث الكبيرة جدا تم تنظيمها على أساس مشاعي. فتشاتالهويوك، المذكورة أعلاه، كانت في أوجها، حوالي 7000 قبل الميلاد، موطنا لما يقدر بنحو 10.000 شخص. كانت تتألف من منازل مكتظة، حيث تعمل كل أسرة كوحدة فردية، مع مدافن تحت أرضية المنزل بدلا من المقابر المشتركة. لكن وعلى الرغم من هذا الاستقلال النسبي للأسرة، فقد أظهرت المنازل اختلافا طفيفا في الحجم، مما يشير إلى وجود القليل جدا من الاختلافات في الثروة أو المكانة، إن وجدت أصلا.

دفعت الطبيعة المتساوية لمجتمع العصر الحجري الحديث بالبعض إلى التشكيك في الصلة بين ثورة العصر الحجري الحديث وصعود المجتمع الطبقي. استمرت العديد من مجتمعات العصر الحجري الحديث لآلاف السنين دون وجود العمل القسري أو الضرائب أو حتى قدر كبير من اللامساواة، وبالتالي إلى أي درجة يمكننا القول إن صعود المجتمع الطبقي كان حتميا أو متأصلا في نمط إنتاج العصر الحجري الحديث؟ لقد شرح ماركس أن التطور الذي يعرفه نمط إنتاج ما يهيئ بالضرورة شروط الإطاحة به بعلاقات جديدة، حيث قال:

«لم يتم أبدا تدمير أي تشكيلة اجتماعية قبل أن تكون جميع القوى المنتجة التي تكفيها قد تطورت، ولا تحل علاقات إنتاج متفوقة جديدة محل العلاقات القديمة قبل أن تنضج الظروف المادية لوجودها في إطار المجتمع القديم».[46]

تكمن حتمية المجتمع الطبقي في حقيقة أن تطور إنتاج العصر الحجري الحديث نفسه قد أعد الظروف التي قام عليها صعود المجتمع الطبقي، أي التقسيم المتزايد التعقيد للعمل في المجتمع، والأهم من ذلك كله نمو فائض الإنتاج. سوف نركز بشكل كبير على كيفية حدوث ذلك في الشرق الأدنى. لا نقول هنا إن التطورات التي حدثت في تلك المنطقة نموذج شامل لصعود جميع المجتمعات الطبقية، لكننا نريد، من خلال تحديد كل المراحل التي مرت منها السيرورة في منطقة واحدة، أن نبرز عناصرها الأساسية.

نمو الفائض

مع استمرار تطور مشاعة العصر الحجري الحديث، ونمو حجمها وقدرتها الإنتاجية، كانت هناك المزيد من الموارد التي يتعين تنظيمها واتخاذ قرارات أكثر تعقيدا. في الواقع يمكن تلخيص تاريخ العصر الحجري الحديث بأكمله في السؤال التالي: "ماذا نفعل بالفائض؟".

من بين الطرق التي نظمت بها مجتمعات العصر الحجري الحديث فائض إنتاجها تخزينه للمستقبل. كانت قرى العصر الحجري الحديث، مثل الجرف الأحمر في سوريا[47]، تحتفظ عموما بمرافق تخزين يديرها ويسيطر عليها المجتمع بأكمله. كما أخذ الفائض شكل كمية أكبر من وقت العمل من الممكن تكريسها للقيام بمهام أخرى. فقد خصص سكان أريحا، على سبيل المثال، فائض وقتهم وطاقتهم لتنفيذ مشاريع مجتمعية ضخمة مثل بناء البرج والجدار العظيمين[48]، اللذين يرجع تاريخهما إلى 8000 عام قبل الميلاد. أدى نمو الفائض أيضا إلى زيادة التجارة بين مشاعات العصر الحجري الحديث، التي كانت مكتفية ذاتيا إلى حد كبير، والتي بدأت في وضع الأساس لتقسيم إقليمي للعمل، وترابط المستوطنات في مرحلة لاحقة[49].

كانت الاستجابة الأكثر أهمية لنمو فائض الإنتاج هي ظهور تقسيم اجتماعي جديد بين العمل الذهني والعضلي، بين الرأس واليد. سمح ارتفاع إنتاجية العمل بتحرير قسم صغير من المجتمع من متطلبات العمل البدني في الحقول. وفر هذا التطور، الذي كان آخر نتاج للعصر الحجري الحديث، الأساس لأولى المجتمعات الطبقية في التاريخ. لذلك فإن تاريخها له أهمية خاصة.

منذ حوالي 7000 عام قبل الميلاد، بدأت شعوب العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى بالانتقال إلى مناطق أخرى أكثر خصوبة، مثل بلاد ما بين النهرين (العراق الحالي)، حيث تطورت في النهاية أولى الدول. يثير هذا التساؤل عن دور البيئة في التطور التاريخي. من الواضح أن بيئتنا الطبيعية مهمة للغاية في "عملية الأيض بين الإنسان والطبيعة". في مجتمع ما قبل التاريخ يظهر الكثير من التطور التقني والاجتماعي للبشرية كرد فعل للضغوط البيئية الخارجية. إلا أن هذا ليس سوى جزء من القصة، حيث يلعب نشاط البشر دور البطولة في نهاية المطاف.

كثيرا ما يقال إن الحضارة، أو المجتمع الطبقي، كانت نتاجا للتربة الخصبة المحيطة بنهر دجلة أو الفرات أو النيل أو النهر الأصفر أو نهر السند. لكن إنتاجية تربة بلاد ما بين النهرين كانت لتبقى مجرد احتمال فارغ طالما أن البشر يفتقرون إلى الوسائل لزراعتها. في الفترة من 7000 إلى 6000 عام قبل الميلاد، أصبح جزء كبير من بلاد ما بين النهرين السفلى غير مضياف بسبب المستنقعات المشبعة بالمياه التي غطتها. وعلاوة على ذلك فإن الافتقار إلى المواد المهمة مثل الخشب و(لاحقا) النحاس جعل من الصعب للغاية الاستقرار في أماكن مثل بلاد ما بين النهرين السفلى، دون الوصول إلى شبكات التجارة البعيدة المدى. وقد تم توفير تلك المواد من خلال تطوير قوى الإنتاج خلال العصر الحجري الحديث.

كان استخدام الري موجودا بالفعل في كل من أريحا وكاتالهويوك باعتباره وسيلة لتكملة الإنتاج. تدهورت تلك المستوطنات، حوالي 7000 قبل الميلاد، لكن التطورات التي تراكمت هناك لم تضع، حيث انتشرت هذه التقنية في نهاية المطاف في سهل ما بين النهرين. تم العثور على أقدم دليل على الزراعة المسقية في ما بين النهرين في تشوغا مامي[50]، ويعود تاريخها إلى حوالي 6000 عام قبل الميلاد. لكن المستوطنة، وثقافة سامراء التي كانت جزءا منها، ما تزال تحتوي على جميع السمات المميزة للعصر الحجري الحديث المبكر. عندما بدأ المستوطنون، الذين يُعتقد أنهم من الهضبة الإيرانية، في تطبيق هذه التقنية الجديدة على المستنقعات فائقة الخصوبة في أسفل بلاد ما بين النهرين، وضع ذلك الأساس لتغيير جذري في التقسيم الاجتماعي للعمل، بلغ ذروته في ميلاد المجتمع الطبقي.

الثورة الحضرية

لم تبدأ الثورة الحضرية في الشرق الأدنى بمستوطنات كبيرة من العصر الحجري الحديث مثل أريحا، بل مع قرى صغيرة، والتي على الرغم من تواضعها في ذلك الوقت، فإنها كانت تمتلك إمكانيات كبيرة للنمو. تعود بدايات موقع إيريدو، في جنوب العراق، إلى حوالي 5800 عام قبل الميلاد. وما يجعل هذه المستوطنة مهمة ليس فقط حقيقة أنها كانت واحدة من أولى المستوطنات التي استخدمت قنوات الري لتصريف فائض مياه المستنقعات، بل لأنها تحتوي على أول دليل على "المباني المخصصة حصريا للأنشطة الثقافية"[51]. كانت هذه "المصليات"، كما يُطلق عليها أحيانا، مظهرا ماديا لحدوث تغيير هائل في العلاقات الاجتماعية، أي: بروز الكهنة.

لا بد أنه كان للري تأثير كبير على حياة ووعي سكان إيريدو الأوائل، لكنه تطلب أيضا تغييرا عميقا في طريقة تنظيمهم للعمل. كان حفر القنوات لا يتطلب فقط عمل العديد من العمال، بل أيضا درجة من التخطيط والتوجيه. لم يكن ممكن تنفيذ هذا العمل بشكل فعال من قبل أسر مستقلة تعمل بمفردها؛ لقد تطلب تعاون عدد كبير نسبيا من العمال تحت إشراف نوع من القيادة.

وكما أشار ماركس في رأس المال: «كل عمل اجتماعي أو مجتمعي مباشر واسع النطاق، يتطلب إلى هذا الحد أو ذاك سلطة توجيهية، من أجل تأمين التنسيق المنسجم لأنشطة الأفراد»[52]. ليس من المستغرب أن يكون الكهنة هم أول من لعب هذا الدور. حتى في مجتمعات القنص والالتقاط غالبا ما احتل الشامان، أو غيرهم من القادة الروحيين، موقعا متميزا نسبيا في التقسيم الاجتماعي للعمل، حتى يتمكنوا من تكريس أنفسهم لفهم البيئة الطبيعية للمجتمع. كان هؤلاء الأفراد، الذين لديهم نظرة ثاقبة في أسرار الطبيعة والآلهة، يعتبرون بطبيعة الحال أفضل المرشحين لتأمين بركات الآلهة. لكن حتى الإله نفسه كان نتاجا للتاريخ. إن الاعتقاد بوجود آلهة قوية تتدخل في شؤون البشر، وبالتالي يتوجب عبادتها، نادر جدا بين مجتمعات القنص والالتقاط، ويُعتقد أنه كان غير موجود قبل العصر الحجري الحديث[53]. وفي نهاية المطاف كان مفهوم إله يمثل أعلى "سلطة توجيهية" هو نفسه انعكاس أيديولوجي للسيطرة المتزايدة لقسم من المجتمع، ليس فقط على القوى الطبيعية بل وعلى البشر أيضا.

لم يكن هذا التطور نتاجا مقتصرا على ظروف بلاد ما بين النهرين الفريدة. كانت مهمة التنبؤ بفيضانات النيل الحاسمة من اختصاص الكهنة المصريين، والمصدر النهائي لقوتهم. كان كهنة المايا، في شبه جزيرة يوكاتان، مطالبين كذلك بالإشراف على التضحيات والاحتفالات لصالح الصروح المقدسة (المجاري الطبيعية التي تملأ بالمياه الجوفية)، التي كانت المصدر الوحيد للمياه العذبة في منطقة خالية من الأنهار. ويمكننا أيضا أن نرى سيرورة مماثلة تتكشف مع ظهور فئة البراهمة في الهند الفيدية، والتي هي مجموعة استمرت تشكل نخبة اجتماعية لآلاف السنين.

يمثل تميز قسم من المجتمع، يعيش على فائض الإنتاج الذي يخلقه بقية المجتمع ويوجه أعماله، نقطة تحول في تاريخ البشرية. بذلك ينتهي العصر الحجري الحديث في بلاد ما بين النهرين ونرى بداية ما أطلق عليه غوردون تشايلد اسم "الثورة الحضرية". ومع ذلك فإنه يجب التأكيد على أن إيريدو في 5800 قبل الميلاد لم يكن بالتأكيد مجتمعا طبقيا؛ إذ بقي كل من الإنتاج والتوزيع شيوعيين بشكل أساسي. كانت السلطة الوحيدة التي يمكن للكهنة الاعتماد عليها هي قبول المجتمع، أو على الأقل غالبية أعضائه، بهم. في جميع الأمثلة المذكورة أعلاه كان الدور الذي لعبته الفئة الكهنوتية في البداية دورا مفيدا للمجتمع بأسره، أي كخدم، وإن ذوي امتيازات، للمشاعة. لكن وفي مرحلة معينة أصبح ذلك الخادم مستبدا.

قدم التنظيم الجديد للعمل الذي وجد في إيريدو مزيدا من التحفيز لتنمية القوى المنتجة. سمحت المساحات الكبيرة من الأراضي الصالحة للزراعة، والتي تم إنشاؤها عن طريق الري، بالاستخدام الفعال للمحراث الذي يجره الثور، مما أحدث فرقا هائلا في إنتاجية العمل في ذلك الوقت. كما أدت زيادة إمدادات المياه لهذه الأراضي إلى ظهور التجارب الأولى في التشجير، مع زراعة نخيل التمر[54]. وعلى أساس هذه التطورات ازدهرت "ثقافة العبيد"، التي سميت كذلك على اسم موقع تل العبيد في العراق، والتي استمرت من 5100 إلى 4000 قبل الميلاد. شهدت هذه الفترة انتشار المستوطنات الزراعية على طول قنوات الري، وكانت كلها تمتلك نمطا مشابها لصناعة الفخار، والذي كان عالي الجودة للغاية. كان للعديد من هذه المستوطنات معبد مركزي، على غرار إيريدو، لكن معابد فترة تل العبيد كانت أكثر فخامة.

يتضح من خلال علم الآثار أن الارتفاع الكبير لفائض الإنتاج، وخاصة الحبوب، كان يساهم ليس فقط في زيادة الثروة وحجم المجتمع ككل، بل وأيضا في الوزن الاجتماعي لجهازه القيادي المركزي. ربما لم يكتسب الكهنة الأفراد الكثير من الثروة لأنفسهم بحلول هذه المرحلة، لكن مؤسسة المعبد تملكت بالتأكيد نسبة أكبر وأكبر من العمل الاجتماعي وفائض إنتاجه. لم يظهر هذا بالضرورة على أنه قطيعة أساسية مع معايير المساواة القديمة. إذ بعد كل شيء، إذا كان الإله الحامي هو الذي وفر بإحسانه الأراضي الجديدة والمحاصيل الوفيرة في المقام الأول، فمن أفضل منه لكي يحصل على فائض الإنتاج كبادرة شكر؟

كما أن الكهنة لم يبددوا ثروة الآلهة. ففي فترة تل العبيد، نجد أدلة على تزايد التخصص في الحرف، وبحلول نهاية تلك الفترة ظهرت فئة من المتخصصين المتفرغين الذين شكلت ورشهم جزءا من المعبد[55]. ومن هذا يمكننا أن نستنتج علاقة التبعية، حيث تم توظيف الحرفيين في المعبد مقابل منتجات مثل الفخار والمشغولات النحاسية والأحجار شبه الكريمة. نرى هنا مرة أخرى علاقات إنتاجية جديدة وهي تتطور داخل رحم النظام القديم.

انتشرت "ثقافة تل العبيد" في معظم أنحاء بلاد ما بين النهرين وأبعد من ذلك. إلا أن هذا لم يشكل بأي حال من الأحوال "إمبراطورية" موحدة، أو حتى دولة. لا يوجد دليل على أن المستوطنات المختلفة المستوحاة من "ثقافة تل العبيد"، التي نجدها في جميع أنحاء المنطقة، قد تم غزوها أو احتلالها من قبل مستوطنات تل العبيد الأصلية. والأكثر ترجيحا هو أنه إلى جانب شبكة متطورة بشكل متزايد من التجارة في الفخار والنحاس والسبج (Obsidian) حجر بركاني يستخدم في صنع الشفرات الحادة) والأحجار شبه الكريمة وغيرها من السلع التجارية المتخصصة، نشأ تفاعل ثقافي أوثق، حيث ألهمت ثروة المستوطنات مثل إيريدو المجتمعات الأخرى باتباع تقنيات إنتاج مماثلة دون أن "تحكمها" لا هي ولا أي كان.

يبدو مجتمع تل العبيد مختلفا جذريا بالفعل عن قرى العصر الحجري الحديث المبكر. إلا أن مجتمع تل العبيد بقي، في عدد من النواحي الأساسية، أقرب في طابعه إلى الشيوعية البدائية منه إلى المجتمع الطبقي. على الرغم من التوزيع غير المتكافئ بشكل متزايد للثروة داخل المجتمع، والقوة المتزايدة للكهنة باعتبارهم حراس الفائض، فقد بقي المجتمع نفسه مستقلا وديمقراطيا وخاليا من العمل القسري. لذلك فإنه يمكن وصف ما سنراه في أواخر فترة تل العبيد بأنه نوع من المجتمع الانتقالي، الذي يحتوي في الوقت نفسه على عناصر قوية من المجتمع الطبقي ومن المجتمع الشيوعي البدائي. ومن العلاقات التي نشأت داخل مجتمع تل العبيد، نشأ أول مجتمع طبقي على الإطلاق، على أساس سيطرة المدينة على القرية، وسيطرة الإنسان على الإنسان: أوروك.

أول مجتمع طبقي

أوروك هي واحدة من أولى الدول في العالم، لا تنافسها في ذلك إلا مصر القديمة. ظهرت مدينة أوروك إلى الوجود من قريتين تنتميان إلى فترة تل عبيد، حوالي 5000 قبل الميلاد. ومثلها مثل المستوطنات الأخرى في تلك الفترة، كانت تتمحور حول مجمعات معابد كبيرة نسبيا: أحدها مخصص لآنو ("السماء")، إله السماء، والآخر لإينانا ("سيدة السماء")، إلهة الحب. وبمرور الوقت أدى نمو تلك القرى إلى اندماجها في مدينة واحدة هائلة، والتي كانت بحلول 3100 قبل الميلاد تقريبا موطنا لعدد مذهل من السكان بلغ 40.000 نسمة.

مع نمو أوروك، إلى جانب نمو سكانها من الحرفيين المتخصصين، بدأ الاكتفاء الذاتي القديم، وبالتالي الاستقلال، الذي ميز المشاعة في الانهيار. كان تركيز الإنتاج الحرفي في المراكز الحضرية، مقابل إنتاج الغذاء في القرى يعني أن المستوطنات الكبرى لم تعد تستطيع الاعتماد على سكانها في إنتاج الغذاء، وبالتالي بدأت تأخذ جزءا من فائض الإنتاج من القرى المجاورة[56]. على أساس هذا التحول الهائل في التقسيم الاجتماعي للعمل نشأ أول فصل بين المدينة والريف. وقد اعتبر ماركس هذا الفصل مهما جدا لتطور المجتمع الطبقي وقال إن: «كامل التاريخ الاقتصادي للمجتمع يتلخص في حركة هذا التناقض»[57].

من المحتمل أن يكون الفائض الآتي من القرى قد اتخذ شكل قربان للآلهة التي تسكن في معابد خاصة بها، إلا أنه كان هناك أيضا عنصر "تعاقدي" متضمن في العملية. كان المزارعون يحصلون على المنتجات الحرفية والسلع التجارية التي لم يكن من الممكن لهم الحصول عليها لولا ذلك. وفي النهاية تحولت هذه العلاقة من علاقة تكامل وتبادل إلى استغلال صريح، في شكل "عشور"[58] مستحقة للمعابد في أوروك من القرى المجاورة، وكانت تُدفع عينا بغض النظر عما إذا كان المزارعون قد حصلوا على أي شيء في المقابل، وكانت تنتزع عن طريق القوة إذا لزم الأمر.

بالإضافة إلى فائض الإنتاج، بدأت بيروقراطية المعبد تطالب أيضا بفائض وقت العمل من جماهير السكان. نرى في أوروك تحول الكم إلى كيف، مع التحكم المباشر والاستغلال على نطاق واسع، ليس من خلال الهياكل المشاعية القديمة للقرية والأسرة، بل من خلال طبقة متميزة، تقف في القمة وتنهب المجتمع.

نقطة التحول هذه تتجلى ماديا في الفخار المتبقي من هذه الفترة. فعلى عكس الأواني والمزهريات المصنوعة بإتقان التي تعود إلى ثقافة تل العبيد، صارت أكثر المشغولات الخزفية شيوعا في أوروك عبارة عن أوعية خشنة "ذات حواف مشطوفة". لكن هذه لم تكن خطوة إلى الوراء كما قد يبدو؛ لقد كانت أوروك مزدهرة وكان الخزافون منشغلون بصنع أول إنتاج بكميات كبيرة في التاريخ. فباستخدام القوالب المعيارية، صار في مقدور الحرفيين المتخصصين إنتاج الآلاف من تلك الأواني في فترة زمنية قصيرة.

لكن من الذي كان يستخدم تلك الأواني؟ التفسير الأكثر قبولا هو أنها كانت تستخدم لتوزيع حصص الإعالة على مجموعات من عمال "السخرة"، الذين كانوا، على الأرجح، فلاحين من القرى المجاورة تم تجنيدهم للعمل في مشاريع مثل حفر قنوات الري أو إقامة أسوار المدينة، والقيام بالعمل الموسمي في حقول المعبد[59]. إن العدد الهائل من تلك الأوعية المكتشفة في أوروك، ومواقع أخرى تعود لتلك الفترة، يشهد على حجم القوة العاملة وحجم المشاريع المعنية. من الممكن أنه تم تجنيد عمال من مختلف القرى والمجموعات العائلية، للعمل لصالح أشخاص لا يعرفونهم، في مشاريع من شأنها ألا تمنح أية فائدة مباشرة، أو القليل من الفائدة، لهم أو لعائلاتهم. بدأت علاقات طبقية جديدة، خارج الهياكل المشاعية القديمة، في الظهور.

بدأت التغيرات الحاصلة في علاقات الإنتاج في قاعدة المجتمع في إحداث تغييرات في علاقات الملكية. قبل مرحلة أوروك، كانت جميع الأراضي ملكا للأسرة بشكل جماعي ولا يمكن التخلي عنها. وهذا يعني أنها ظلت دائما في حيازة مشاعة القرية وتحت سيطرتها الجماعية، والتي كانت هي نفسها مكونة من عدة مجموعات أسرية كبيرة، على غرار عشائر الإغريق في العصر الهوميري. ويمكن رؤية الدليل على ملكية هذه العشائر للأرض حتى في وقت لاحق، في فترة الأسرات الحاكمة الأولى. ففي "عقود" شراء الحقول، كان على المشتري أن يوزع "هدايا" على جميع أفراد الأسرة الممتدة للبائع الفردي، قبل أن يتمكن من الحصول على إذنهم بالتنازل له عن حيازتهم الجماعية[60]. لكن العلاقات الجديدة التي نشأت في المدينة شكلت تهديدا كبيرا لهذا الوضع.

مع نمو أوروك، استمرت أراضي القرية الموجودة مسبقا تدار في ظل نظام الأسرة القديم. إلا أن توسيع مشاريع الري، التي نفذها عمال السخرة تحت إشراف المعبد، أوجد أراض عذراء صالحة للزراعة ليست في ملكية أية قرية أو أسرة. وهذا يعني أنها تقع بشكل طبيعي خارج النظام المشاعي القديم. وبدلا من ذلك صارت تلك الأراضي الجديدة مخصصة للمعبد. وبمرور الوقت تم تخصيص أجزاء من أراضي المعابد تلك لأفراد مقابل الخدمات التي قدموها للمدينة. وبطبيعة الحال كان هؤلاء الأفراد من النخبة الحاكمة. لم تكن هذه المنح على شكل مِلكية مطلقة بل اعتبرت راتبا مؤقتا وقابلا للإلغاء، إلا أنه كان لها، رغم ذلك، تأثير في خلق شكل من أشكال الحيازة الفردية والسيطرة على الأرض، بشكل مستقل عن القرى.

تفكك النظام المشاعي القديم يمكن رؤيته أيضا داخل مدينة أوروك نفسها. لم يكن جميع مواطني أوروك يستفيدون بالتساوي من الفائض المستخلص من القرى. كانت للمعبد سيطرة حصرية على فائض الإنتاج، وخصص حصة متزايدة باستمرار لنفسه. وما لم تستهلكه بيروقراطية المعبد تم تخزينه وتوزيعه وتداوله تحت سيطرتها. ومن ناحية أخرى أدى تفكك نظام الأسرة إلى خلق طبقة دنيا من الناس ليست لديهم وسائل لإعالة أنفسهم. بدأ الضغط المتزايد على القرى لاستخلاص فائض الانتاج في سحق هؤلاء الفلاحين غير القادرين على سداد الديون. وأولئك الذين فشلوا في سداد ديونهم صار من الممكن استعبادهم من قبل دائنيهم، هم وزوجاتهم وأبناؤهم. بدأنا نرى في أواخر فترة أوروك أدلة على تشغيل الأرامل والأيتام بشكل من أشكال العمل العبودي، لإنتاج المنسوجات في ورش ملحقة بالمعبد[61]. بعد ذلك يتم تداول منتجات ورشات العمل هذه، أحيانا عبر مسافات بعيدة، مقابل سلع مطلوبة مثل النحاس والسبج.

هذا المنتج الجديد للـ"الحضارة" يعطينا أيضا مؤشرا قويا على مدى تدهور وضع النساء في أوروك بحلول ذلك الوقت. ففي المدينة كانت الأجور أو الأراضي تمنح للحرفيين والكهنة وما إلى ذلك، والذين كانوا دائما من الذكور. وكذلك في الريف كانت زراعة الحبوب باستخدام المحراث الذي يجره الثور مهنة خاصة بالذكور فقط. ومع تزايد أهمية هذا الفرع من التقسيم الاجتماعي للعمل تزايدت أيضا مكانة الرجال في المجتمع.

مكانة المرأة بصفتها منتجة على قدم المساواة داخل الأسرة "انحطت وتحولت إلى العبودية" صارت "أمة لشهوة [الرجل] ومجرد أداة لإنتاج الأطفال"[62]، على حد تعبير إنجلز. وقد اعترف بذلك السومريون أنفسهم، ففي ملحمة جلجامش نجد الصياد يخاطب شماش قائلا: «انشري رداءك حتى يتمكن من التمدد عليك، وقومي لهذا البدائي بمهمة جنس النساء».[63] إن ظهور نظام الإرث من خلال السلالة الذكورية جعل النساء يصرن معتمدات بالكامل على أزواجهن أو أقاربهن الذكور. وإذا مات أزواجهن فإن الخلاص الوحيد الذي يقدمه المعبد لهن هو العمل في الورشات، والقيام "بعمل النساء" في المنزل في ظروف مزرية، وذلك لأجل توسيع ثروة الطبقة السائدة. ليس عبثا أن إنجلز أشار إلى أن «أول اضطهاد طبقي يتزامن مع اضطهاد جنس الإناث من قبل جنس الذكور».[64]

إذا نظرنا إلى بدايات ظهور المجتمع الطبقي في أوروك، نجد أنه من الصعب تصديق كيف كان من الممكن التسامح مع مثل ذلك الاغتصاب الهائل. لكنه لم يكن من الممكن تحقيق ذلك بالقوة وحدها. وكما كتب تروتسكي: «يتمثل التبرير التاريخي لكل طبقة سائدة في أن نظام الاستغلال الذي تترأسه يرفع تطور القوى المنتجة إلى مستوى جديد»[65]. على أساس ذلك التطور تم رفع مستويات المعيشة والمستوى الثقافي لقطاع كبير من السكان، خاصة في المدن. يمكن رؤية هذا التطور في ميلاد الكتابة والمال، اللذان يشكلان إحدى أهم الابتكارات في تاريخ البشرية.

الكتابة والمال

هناك ترابط وثيق بين تطور المال والكتابة والمجتمع الطبقي. تطورت الكتابة بشكل متزامن إلى حد ما في كل من بلاد ما بين النهرين ومصر، لكن ولدواعي التبسيط سنركز على بلاد ما بين النهرين. بدأت الرموز الطينية، والمعروفة باسم الرموز المحاسبية، في الظهور في إيران الحالية منذ 4000 قبل الميلاد. كان في مقدور شخص ما يحاول حساب ثلاثة خراف أن يصنع ثلاثة قطع [طينية] من "الأغنام" ويربطها معا على قطعة من الحبل. وبمرور الوقت، وعندما أصبحت القطعان أكبر، تم اختراع رموز تمثل أعدادا مختلفة من الماشية. غالبا ما كان يتم وضع الرموز المميزة على قطعة من الصلصال ويتم تجفيفها في الموقد[66]. تعكس اللوحات التصويرية التي وجدت في مواقع مثل تل براك في سوريا، والتي تعرض صورا لحيوانات بجوار أرقام، أقصى درجة يمكن أن يتطور إليها استخدام الرموز قبل ظهور نظام كتابة كامل.

في أوروك، تم تطوير نظام كتابة سمح لبيروقراطيي المعبد بتبادل مفاهيم معقدة مع بعضهم البعض، بناء على الصور التوضيحية للفترة السابقة. في البداية ، تم استخدام ذلك لتنظيم الموارد الاقتصادية لأوروك. منذ حوالي 3200 قبل الميلاد، بدأت الكتابة "المسمارية" (سميت كذلك في إشارة إلى الشكل الإسفيني لعلاماتها) في الظهور في السجل الأركيولوجي. حوالي 85% من الألواح المسمارية المرتبطة بأوروك هي ذات طبيعة اقتصادية وإدارية. إن وجود نظام كتابة معقد بشكل استثنائي، مثل الكتابة المسمارية، يفترض وجود فئة في المجتمع لديها الوقت لتعلم القراءة والكتابة: الكتبة. إن امتلاك الكتبة لتلك المعرفة ضمن لهم مكانة مهمة بين صفوف الطبقات السائدة في كل من بلاد ما بين النهرين ومصر. وكما جاء في بردية هجاء المهن المصرية القديمة: «لاحظ أنه لا توجد مهنة لا رئيس لها إلا مهنة الكاتب، فهو رئيس نفسه...».[67]

وعلى الرغم من أن الكتابة بدأت بفعل الضرورة الاقتصادية، فقد تم استخدامها بعد ذلك لمجموعة متنوعة من الأغراض. تم استخدام الكتابة المسمارية عبر بلاد ما بين النهرين لآلاف السنين. وفي النهاية تم تسجيل أقدم مؤلفات الأدب والشعر، مثل ملحمة جلجامش الشهيرة، وترنيمة الحوريين لنيكال، وهي أقدم أغنية معروفة في العالم، وقوانين حمورابي، كلها بالخط المسماري. وبهذا المعنى فإن كل شاعر بداخله "بقايا" المحاسب.

ومثلما أدى نمو الفائض وبيروقراطية المعبد إلى خلق حاجة اجتماعية لتوصيل المعلومات من خلال الكتابة، فإن التخصص المتزايد والاعتماد المتبادل داخل المجتمع قد استلزم التبادل المستمر لمجموعة تزداد تنوعا من المنتجات. في أوروك، تمت إدارة هذه المبادلات من قبل المعبد أساسا. وعلى سبيل المثال فقد كان في إمكان الخزفي، الذي ينتج أوعية ذات حافة مشطوفة، أن يتوقع أن يحصل من المعبد على حصص كافية من الشعير، والتي كانت تُؤخذ كعشر من القرى.

عملية التوزيع التي كان المعبد يقوم بها تجاوزت من حيث حجمها الهائل وتعقيدها حدود المبادلات الشخصية التي كانت شائعة خلال العصر الحجري الحديث. ولذلك صار من الضروري وجود نظام قياس أكثر موضوعية. كانت أوزان الفضة تقاس بالحبوب والشيكل والمينا والطالن. تم استخدام هذا النظام بعد ذلك لإنشاء وحدات حساب، والتي سمحت لبيروقراطيي المعبد بمقارنة قيم مختلف السلع التي كانت تمر عبر متاجرهم، مما أدى إلى ظهور النقود في أبكر أشكالها: "مقياس عام للقيمة"[68]. في البداية لعب كل من كمية الشعير وأوزان المعادن الثمينة هذا الدور: كان 300 لتر من الشعير يساوي شيكل فضي واحد. من شبه المؤكد أن هذه الأشكال المبكرة من النقود لم تكن لتتداول بين السكان كعملة أو نقود. في الواقع كانت هذه الكميات من الشعير والفضة مقاييس ملموسة لذلك الحساب التجريدي للقيمة الذي يتم إجراؤه داخل المعبد. لكن المال، مثله مثل الكتابة، لم يكن من الممكن أن يستمر مقتصرا على بيروقراطي المعبد إلى الأبد. كان من المقرر له أن يلعب دورا أكبر في تاريخ الحضارة: يمكن للعملة والائتمان، وجميع الأبراج اللامعة لنظام التمويل العالي في وقتنا الحالي، أن تستمد جذورها من تلك الأوزان المتواضعة من الفضة وحصص الشعير.

تم أيضا توحيد قياس الوقت، باستخدام نظام العد الستيني، الذي أسفر بشكل مثير للإعجاب عن سنة من 12 شهرا و360 يوما. ويعود الفضل لهذا النظام أيضا في ابتكار ساعاتنا التي تحتوي على 60 دقيقة. وبالمثل فقد تم إدخال مقياس موحد للمسافة للمساعدة في تخطيط الأراضي الزراعية وقنوات الري. كل هذه الابتكارات، التي أشار إليها أرسطو ببراعة، ارتبطت ارتباطا مباشرا بتحرير الكهنة والكتبة من العمل اليدوي، وقدمت دفعة هائلة لقوة الفكر العلمي، وأوجدت أوائل علماء الفلك والرياضيات.

ظهور الدولة

لدينا أدلة وافرة على أنه بحلول عام 3100 قبل الميلاد وجدت طبقة من الكهنة والكتبة، مرتبطون بالمعبد، ويمتلكون سيطرة حصرية على إنتاج وتوزيع ثروة المجتمع، وبدأوا يأمنون لأنفسهم احتياطيا موروثا من الثروة الخاصة. يمكننا أن نرى أيضا أن هذه الطبقة كانت قد بدأت تصير مدركة تماما لذاتها، بمعنى أنها رأت نفسها منفصلة عن بقية المجتمع ومتفوقة عليه ونشرت أيديولوجية حكم تعكس مصالحها.

ومن السمات الأخرى لظهور طبقة سائدة جديدة في أوروك، هو ظهور "الملوك الكهنة" الأوائل الذين ظهروا في التماثيل وتصميمات الأختام الطينية التي تعود إلى تلك الفترة. لا توجد دلائل يمكن التحقق منها تاريخيا أو أعمال مسجلة يمكن ربطها بشكل موثوق بهؤلاء الحكام المجهولين. وحتى لقب "الكاهن الملك" هو تسمية خاطئة، لأن أول لقب يمكن أن نجده لحاكم أوروك هو إن (En)، ويعني ببساطة "رئيس الكهنة". أما سؤال ما إذا كان من الممكن اعتبار هؤلاء الملوك أنهم حقا رؤساء دول بالمعنى الكامل للكلمة فهو أمر مفتوح للنقاش. ومع ذلك فإنه يمكننا أن نكون على يقين من أن ظهور هؤلاء "الملوك الكهنة" يمثل تحولا نوعيا إضافيا في مسار تفكك النظام الاجتماعي المشاعي القديم، وبداية شكل جديد من التنظيم السياسي.

مع الزيادة الهائلة في فائض الإنتاج، وتركيزه في المعابد، أصبح من الضروري بشكل متزايد لمدن مثل أوروك أن تبني الجدران وتنظم شكلا من أشكال القوة العسكرية، من أجل صد غارات القبائل البدوية من الرعاة أو حتى المدن المعادية. إلا أن ذلك التنظيم العسكري تطلب قائدا. وتشير الأختام الطينية التي تعود إلى ذلك الوقت إلى أن هذا الدور قد تم إنجازه من قبل الكهنة الملوك في أوروك ولاحقا الملوك السومريين.[69]

وتحت الملك كان يوجد هناك أيضا مجلس جماعي، أونكين (unkin). ومع ذلك فإن ذلك لم يكن مجرد استمرار للتنظيم المشاعي القديم. كانت المجالس القروية القديمة هيئات لصنع القرار تحل القضايا بين الأسر التي تكون القرية. وعلى النقيض من ذلك فإن الدولة الناشئة، أو الدولة البدائية، طالبت بالسلطة المطلقة ليس فقط على المدينة التي يقيم فيها الكاهن الملك، بل أيضا على الأراضي المحيطة بها. يمكن للمجلس أن يقدم النصح، مثل مجلس "حكماء" ملحمة جلجامش، الذين حذروا الملك المتهور قبل صراعه مع العملاق، هومبابا[70]. لكن في النهاية كان الكاهن-الملك مسؤولا فقط أمام الإله الذي يحمي المدينة، وفي الواقع أمام الطبقة السائدة التي كان يحكم لصالحها.

بعد فترة وجيزة من صعود الملوك الكهنة، مرت أوروك بفترة أزمة وانهيار، إيذانا بنهاية ما يسمى بـ"التمدن الأول". بعد 3100 قبل الميلاد حدث ليس فقط "تراجع كبير"[71] لثقافة أوروك في السجلات الأركيولوجية، بل أيضا تدهور دائم، وحتى اختفاء تام، لمدن أخرى في المنطقة، التي نشأت جنبا إلى جنب مع أوروك طوال الألفية الرابعة قبل الميلاد. وعلى سبيل المثال فقد وجدنا في موقع أرسلانتيب، بشمال بلاد ما بين النهرين، أدلة على أن مجمع المعبد الكبير في المدينة قد دمر بالنيران ولم يُعد بناؤه مطلقا[72].

الأدلة نادرة للغاية لتقديم تفسير واحد نهائي لذلك الانهيار الواسع الانتشار. من بين العوامل المحتملة هناك تأثير الجفاف أو تأثير الإفراط في الزراعة، لكن من المحتمل أيضا أن تلعب العوامل الاجتماعية الأخرى دورا مهما، بل وحتى حاسما. وكما يمكن أن نرى عبر تاريخ المجتمع الطبقي، بما في ذلك عصرنا الحالي، فإن الطبقة السائدة تميل إلى إلقاء عبء أي أزمة على كاهل المنتجين المباشرين. عندما كان الإنتاج يتوسع، كان من الممكن، إلى حد ما، اخفاء التناقضات الطبقية الجديدة في المجتمع، لكن مع انخفاض الإنتاج الزراعي، من المحتمل أن يكون الصراع بين قرى الفلاحين وبين الطبقة السائدة في المدن قد انفجر بشكل صارخ .

يشير ماريو ليفيراني، في كتابه "الشرق الأدنى القديم"، بأن تدمير المعبد في أرسلانتيب بالنار يشير إلى اندلاع صراع عنيف. لكن ما يمكن قوله بشكل يقيني هو أنه قد تم استبداله بعدد قليل من المنازل البسيطة، دون عودة إلى هيكل معبد مركزي. ومن المحتمل أن يكون قد نشب صراع مماثل في أراضي أوروك، حيث قاومت القرى سعي المعبد إلى الاستيلاء على فائض الإنتاج، أو أنها حاولت حتى الانفصال تماما.

بعد أزمة نهاية الألفية الرابعة، دخل هيكل جديد كليا السجل الأركيولوجي، وهو القصر. كانت أوروك والمستوطنات المشابهة لها مركزة حول مجمعات المعابد، التي استولت على الفائض بأكمله وسيطرت عليه. أما المستوطنات اللاحقة، مثل جمدت نصر، فقد كانت تمتلك معبدا ومجمعا للقصر، مع مخازن وورشات عمل، على غرار معابد فترة أوروك[73]. وهكذا فقد كان القصر، إ غال (e-gal) (أي "المنزل الكبير")، بمثابة مركز إنتاجي بالإضافة إلى كونه مركزا إداريا، وكان مقر إقامة للوغال (lugal) (حرفيا "الرجل الكبير"). ومن هذه النقطة فصاعدا ظهرت الدولة بالمعنى الكامل للكلمة.

دور القوة

تشير الأزمة التي حدثت في أوروك، والانهيار الكامل في مواقع أخرى مثل أرسلانتيب، إلى أن الحكم المباشر للكهنة، وعلى الرغم من قوتهم الأيديولوجية الكبيرة، قد افتقر إلى القوة الغاشمة المطلوبة للسيطرة على السكان الخاضعين إذا دعت الحاجة لذلك. كانت الجيوش الأولى أقرب إلى مجرد أناس مسلحين تم تجنيدهم للخدمة العسكرية. لكن إذا تمرد هؤلاء الناس أنفسهم، فلن يكون لدى الكهنة من يعتمدون عليه. ما كان مطلوبا لاستمرار العلاقات الطبقية هو وجود قوة دائمة من «العاملين المتفرغين والمتخصصين في الأنشطة العسكرية»[74]، المنفصلين عن عموم السكان، ليس فقط لحماية المدينة من الأعداء الخارجيين، بل وكذلك للدفاع عن الطبقة السائدة ضد الجماهير المضطهَدة. ستصبح هذه "المجموعة الخاصة من الرجال المسلحين" دولة، وعلى رأسها "الرجل الكبير". كما يوضح إنجلز:

»وعليه فإن الدولة ليست بأي شكل من الأشكال سلطة مفروضة على المجتمع من خارجه؛ كما أنها ليست "حقيقة الفكرة الأخلاقية"... بل هي، بالأحرى، نتاج للمجتمع عند طور معين من أطوار نموه؛ إنها الاعتراف بأن هذا المجتمع قد تورط في تناقض ذاتي غير قابل للحل وأنه انقسم بعداوات لا يمكن التوفيق بينها وصار عاجزا عن القضاء عليها. لكن لكي لا تستهلك هذه التناقضات، وهذه الطبقات ذات المصالح الاقتصادية المتضاربة، نفسها والمجتمع في صراع غير مثمر، صار من الضروري وجود سلطة، تبدو فوق المجتمع، لتهدئة الصراع وإبقائه ضمن حدود "النظام"؛ وهذه السلطة، التي نشأت من المجتمع، لكنها تضع نفسها فوقه وتنفصل عنه بشكل متزايد، هي الدولة».[75]

لكن وعلى عكس التفسير الذي قدمه إنجلز، جادل المنظرون اللاسلطويون، في كثير من الأحيان، بأن الدولة هي أصل كل الشرور، بما في ذلك المجتمع الطبقي واللامساواة والمال، والتي كلها نشأت بطريقة ما على أساس العنف المنظم للملوك والدول. يجادل ديفيد غريبر، على سبيل المثال، بأن: «الأصول الحقيقية للمال تكمن في الجريمة والتعويضات والحرب والعبودية والشرف والديون»[76]. لكن هذا يتناقض بوضوح مع السجل الأركيولوجي، الذي يؤكد فكرة إنجلز.

الشيء الصحيح في موقف اللاسلطويين بشأن الدولة هو ارتباطها الوثيق بالمجتمع الطبقي. تظهر تجربة أوروك أنه لا يمكن لأي مجتمع طبقي أن يعيش لفترة طويلة بدون دولة تحميه وتنظمه. لكن تفسير وجود الاستغلال الطبقي على أنه نتاج للدولة يعني وضع العربة أمام الحصان. إذا لم ننظر إلى الدولة على أنها شكل من أشكال العنف أو السيطرة، سنجعل الدولة أبدية وعديمة المعنى، إلا أن دراسة الدول القديمة يوضح أن المجتمع الطبقي كان بالفعل في طور التكوين عندما ظهر الملوك الحقيقيون الأوائل وظهرت الدول الأولى.

حقيقة أن قيام المجتمع الطبقي قد تطلب في كل مكان ظهور الدولة، تعكس فقط واقع أن القضاء النهائي على العلاقات المشاعية القديمة، والذي تم التحضير له على مدى آلاف السنين، لم يكن من الممكن تحقيقه بطريقة سلمية وتدريجية. استمرت شريحة كبيرة من المجتمع تتعارض مصالحها بشكل مباشر مع علاقات الاستغلال الجديدة التي بدأت في الظهور. وفي الوقت نفسه كان من الواضح أن هناك قطاعات مؤثرة في المجتمع قد بدأت تربح الكثير من النظام الجديد. تسبب هذا الوضع في اندلاع صراع كان من المحتمل أن يؤدي، عند نقطة معينة، إلى تقسيم المجتمع بأسره إلى معسكرات متعارضة، في صراع لا يمكن حسمه في النهاية إلا بالقوة: «القوة هي مولدة كل مجتمع قديم حامل بمجتمع جديد. إنها نفسها قوة اقتصادية».[77]

تطور اجتماعي مركب وغير متكافئ

تقدم سيرورة تكون الدولة في بلاد ما بين النهرين مثالا رائعا على كيفية تطور المجتمع الطبقي من مجتمع مشاعي من العصر الحجري الحديث.

أدى ذلك بغوردون تشايلد إلى وضع قائمة "بالسمات" المهمة التي اكتشفها في تلك المجتمعات الطبقية المبكرة، بما في ذلك «الحرفيين المتخصصين المتفرغين وعمال النقل والتجار والمسؤولين والكهنة»، واستخلاص الفائض والكتابة و«تنظيم دولة قائمة على الاستيطان وليس على القرابة».[78]

قام العديد من نقاد تشايلد بتحريف وصفه القيم لواحدة من أهم السيرورات في تاريخ البشرية بتحويلهم إياها إلى ما يشبه "الوصفة" لكيفية تشكل الدول، حيث تصير الدولة جهازا يظهر في أي مجتمع يحتوي على مدن إضافة إلى جميع السمات المذكورة أعلاه. ونتيجة لذلك يزعمون أن التحليل الماركسي للدولة تحليل متعسف للغاية، ولا ينطبق إلا على بلاد ما بين النهرين. إلا أن هذا مجرد افتراء. يفهم الماركسيون أن مجتمعات الدولة ليست مجرد قائمة من السمات. فهناك حضارات، مثل الإنكا، لم تطور الكتابة أبدا؛ وغيرها، مثل مصر القديمة، حيث لعبت المدن دورا اقتصاديا أقل أهمية. وبدلا من تصنيف المجتمعات بطريقة تجريبية وتصنيفية، بناء على سماتها السطحية، من الضروري النظر في أصلها وتطورها وعلاقتها بالمجتمعات الأخرى المعاصرة لها.

في كتابه رأس المال، يتحدث ماركس بإسهاب عن تطور الرأسمالية في إنجلترا، حيث اتخذت الرأسمالية "شكلها الكلاسيكي"[79]، مع إشارات عابرة فقط إلى البلدان الأخرى. لكنه، في الوقت نفسه، لم يقل إن الشكل الدقيق الذي حدثت به السيرورة في إنجلترا هو الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تحدث بها في كل مكان. إن ما جعل من إنجلترا البلد الكلاسيكي للتطور الرأسمالي هو ما جعلها فريدة أيضا. حقيقة أنها كانت أول بلد طور اقتصادا رأسماليا من مجتمع إقطاعي، يعني أن السيرورة امتدت على مدى مئات السنين والعديد من الأشكال الوسيطة والانتقالية. سمح ذلك بإجراء دراسة دقيقة للسيرورات العامة العميقة التي حدثت ليس في إنجلترا فقط، بل وكذلك في عدد من البلدان الأخرى. لكن هذا لا يعني أنه كان على كل بلد أن يمر بمرحلة إنتاج الصوف للتسويق، تليها مرحلة المانيفاكتوراة، ثم، أخيرا، نظام المصنع، من أجل تطوير الرأسمالية.

يمكن قول الشيء نفسه عما يسمى بالدول "البكر"، في سومر ومصر والصين على سبيل المثال. كانت تلك المجتمعات الطبقية المبكرة أبعد ما تكون عن "بكر"، إذ كانت "فوضوية" ومتناقضة للغاية، وتحمل طابع العلاقات المشاعية السابقة. والدول التي نشأت بعد ذلك وتحت تأثير هذه الحضارات، فعلت ذلك بسرعة أكبر بكثير وبدون الكثير من بقايا ما قبل التاريخ، التي يمكن العثور عليها في أوروك على سبيل المثال. تمكنت الدول المدن السومرية، التي تطورت فيما بعد، مثل أور، أن تقفز فوق سابقيها. هذه الظاهرة موثقة على نطاق واسع عبر التاريخ، بما في ذلك في تاريخ تطور الرأسمالية، حيث أن امتياز كونك أول من يتطور سرعان ما يُتجاوز من خلال "امتياز التخلف"، حيث يمكن للمجتمعات الأكثر تخلفا اقتصاديا أن تتطور بشكل أسرع وأكثر عقلانية من خلال الاعتماد على إنجازات منافسيها الأكثر تقدما.

قام إنجلز بوصف سيرورة مماثلة في كتابه "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة". حيث وضح أن أصول الدولة الأثينية يمكن إرجاعها إلى الاضطرابات الاجتماعية الهائلة التي سببها تأثير الملكية الخاصة والعبودية والمال، والتي تطورت جميعها في أماكن أخرى. وفي ظل هذه الظروف، صعد المجتمع الطبقي الأثيني في فترة أقصر بكثير مما حدث في أوروك، كما أنه اتخذ شكلا مختلفا تماما، بدون بيروقراطية معبد مركزي أو ضرائب كوسيلة أساسية للحصول على فائض الإنتاج. كان مجتمعا قائما على نمط إنتاج مختلف نوعيا، يتميز بمستوى أعلى من الملكية الخاصة، ومعه العبودية، وذلك على وجه التحديد لأنه ظهر لاحقا، على أساس العصر الحديدي، مقابل تقنيات العصر البرونزي، وفي بيئة مختلفة مقارنة بسومر ومصر.

غالبا ما يتم اتهام الماركسيين بأنهم يطبقون نموذجا صارما لتطور المجتمعات الطبقية. ومع ذلك، فإنه إذا استخدمنا الطريقة الماركسية بشكل صحيح لتحليل صعود الدولة، يمكننا أن نرى أن العكس هو الصحيح. القانون الحديدي للمادية التاريخية هو أن التفاعل المستمر بين المجتمعات في مراحل مختلفة ينتج بالضرورة قفزات وتنوعا في التطور الاجتماعي: وهي ظاهرة أطلق عليها ليون تروتسكي اسم "التطور المركب وغير المتكافئ" .

فمهما كانت الاختلافات الموجودة بين بلاد ما بين النهرين ومصر، وبين الموريين والمايا، أو الإغريق والرومان، فإن السيرورة التي يقوم عليها تطور تلك الدول هي نفسها. ففي جميع الأحوال يؤدي تطور قوى الإنتاج إلى إنتاج فائض، والذي بدوره يسمح لمجموعة من الناس بالعيش على حساب نتاج عمل الآخرين. وفي سياق التطور، تتطور تلك المجموعة إلى طبقة لها مصالحها الخاصة المناقضة لمصالح بقية المجتمع. عندها، إما بسبب الضغط الخارجي، أو بسبب التناقضات الداخلية لذلك المجتمع الطبقي الجديد (وعادة كلا السببين)، تظهر الدولة، التي تمثل، في نهاية المطاف، مصالح تلك الطبقة، وترفع نفسها فوق بقية المجتمع كوصي على "النظام"، أي استقرار واستمرار علاقات الإنتاج القائمة. يمكن لهذه السيرورة أن تحدث على مدار آلاف السنين أو في فترة زمنية قصيرة جدا، ويمكنها أن تتخذ عدة أشكال. لكن الدرس الأكثر أهمية هو أن تطور الدولة ينتج بشكل أساسي عن تطور الطبقات الاجتماعية والتناقضات التي تنبع من ذلك.

دور الفرد

لكن هذا لا يعني أن الدولة والطبقات تتطور تلقائيا في كل مجتمع تكون فيه الظروف الاقتصادية الأساسية قد بدأت تتشكل. يمكن أن تتعرض هذه السيرورة للانقطاع أو التشتت أو الإبطاء أو التقهقر، بفعل الأحداث التاريخية الواقعية، ولا سيما مسار الصراع الطبقي الناشئ داخل المجتمع المذكور. يوضح ماركس في كتاب العائلة المقدسة أن:

«التاريخ لا يفعل شيئا، إنه "لا يمتلك ثروة هائلة" و"لا يخوض أي معارك". إنه الإنسان، الحقيقي، الإنسان الحي، هو الذي يفعل كل ذلك، ويمتلك ويحارب؛ "التاريخ" ليس، ولم يكن، شخصا منفصلا، يستخدم الإنسان وسيلة لتحقيق أهدافه الخاصة؛ التاريخ ليس سوى نشاط الإنسان في سعيه وراء غاياته».[80]

يمكن للأفراد أن يلعبوا دورا حاسما للغاية في تشكيل الدول الأولى، تماما مثلما يفعلون في الصراع الطبقي الحديث. المفهوم الشائع في الأركيولوجيا لشرح ظهور الدول الأولى هو "مبدأ العظمة". ويجادل أصحاب هذا الرأي بأنه خلال الانتقال من سيطرة الزعيم إلى الدولة، يلعب الأفراد "العظماء"، في سعيهم لزيادة سلطتهم الخاصة، دورا حاسما في تشكيل الدول المبكرة. تنظر هذه الفكرة إلى التاريخ على أنه نتاج "للرجال العظماء"، وتصور تصرفات وشخصيات الأفراد العظماء على أنها عامل مستقل ومحرك في تاريخ المجتمع. لكن من خلال المقاربة المادية لتشكل الدولة، يصير من الممكن وضع هؤلاء الرجال العظماء في مكانهم الحقيقي. يتضح هذا بشكل أكبر في سيرورة تشكل الدولة المصرية، إذ بالتركيز على الطقوس الجنائزية المتقنة والمدافن الملكية نتمكن من معرفة قبور الملوك الأكثر ثراء.

يمكننا أن نرى في رسومات نارمر، الملك الذي وحد مصر العليا والسفلى، أن سيرورة تشكيل الدولة لم تكن تلقائية على الإطلاق. تُظهِر لوحة نارمر، التي تقدم واحدة من أقدم الصور المعروفة لأي ملك في التاريخ، نارمر مرتديا تاج مصر العليا والصولجان في يده، وهو يخضع أحد سكان مصر السفلى ويجبره على الاستسلام له. لم يرث الملوك الأوائل دولة جاهزة، بل كان عليهم بناؤها باستعمال القوة.

لو أن نارمر كان قائدا جبانا وغير كفء، لكان من المحتمل ألا يتخذ تشكيل الدولة المصرية القديمة نفس الشكل. وبهذا المعنى فإن لشخصية الأفراد وأفعالهم دور حاسم، إذ أن وقوع الأحداث بالطريقة التي وقعت بها أم بطريقة أخرى، يعتمد على الأشخاص الذين يقومون بها. لكن التاريخ قد عرف دائما وجود أفراد يتمتعون بالكاريزما والطموح. والسؤال الذي يجب على أي شخص يرغب في فهم سبب نشوء الدول أن يجيب عنه هو: لماذا، في تلك المرحلة بالذات، كان هؤلاء الأفراد قادرين على تحقيق أهدافهم بتلك الطريقة التاريخية الحاسمة.

ربما كان أفراد مثل نارمر مصر، أو جاغوار زابوتيك، أو لوغالس سومر، يتصرفون وفق مصلحتهم الخاصة، إلا أنهم عكسوا أيضا الضرورة الكامنة التي كانت موجودة في مجتمع طبقي تمزقه تناقضاته الخاصة. وعلى حد تعبير بليخانوف فإن:

«الرجل العظيم عظيم ليس لأن صفاته الشخصية تعطي سمات فردية للأحداث التاريخية العظيمة، بل لأنه يمتلك صفات تجعله أكثر قدرة على تلبية الاحتياجات الاجتماعية العظيمة في عصره، والتي نشأت نتيجة لأسباب عامة وخاصة»[81].

"الرجال العظماء" الأوائل، مثل بناة المعبد في غوبيكلي تيبي والمستوطنين من العصر الحجري الحديث الذين جففوا مستنقعات سومر، كانوا أفرادا صنعوا التاريخ بأفعالهم وقدراتهم. لكنهم لم يصنعوه من لا شيء. فإذا بدت رؤيتهم وطموحاتهم قد غيّرت المجتمع من خلال قوة الإرادة المطلقة وحدها، فذلك لأن تلك الرؤية كشفت عن صورة لمستقبل يتم إعداده بما هو أكبر من إرادة أي فرد.

في فجر المجتمع الطبقي، كانت الإطاحة بالمجتمع المشاعي وتشكيل الدول من "الاحتياجات الاجتماعية العظيمة" في ذلك العصر. كان لابد من إيجاد حل للأزمة التي اندلعت في المجتمع، وقد تم إيجادها في ميلاد الدولة، حيث لعبت تصرفات القادة مثل نارمر دورا مهما. إن الخطأ الذي ارتكبه المؤرخون والأركيولوجيون هو اعتبار الفاعلية الفردية والضرورة التاريخية مسألتان متعارضتان، في حين أنهما في الواقع متحدان في كل حدث تاريخي. فبالضبط من خلال صراع الإرادات الفردية، التي لا تعد ولا تحصى، تفرض الضرورة التاريخية نفسها.

دفاعا عن التقدم

بالنظر إلى الصعوبات التي واجهها مزارعو العصر الحجري الحديث والاستغلال الذي عانى منه الكثير من أحفادهم في ظل المجتمع الطبقي، يتساءل البعض عما إذا كان بإمكاننا حتى أن نصف هذا التطور بأنه "تقدم" أصلا. من المؤكد أن الأسطورة الليبرالية عن "العقد الاجتماعي" المستنير، الذي تعيش في ظله البشرية جمعاء حياة أكثر سلاما وازدهارا، هو فكرة خاطئة بشكل واضح. لقد كانت حياة الفلاح السومري على الأرجح "قذرة ووحشية وقصيرة" مثلها مثل حياة أسلافه في العصر الحجري الحديث. ولا يمكن اعتبار التقدم على أنه نوع من السمو الأخلاقي، بالنظر إلى استعباد النساء في ظل المجتمع الطبقي. المفهوم الوحيد للتقدم الذي يمكن أن يأخذ بعين الاعتبار ذلك التطور الواضح الذي حدث على مر العصور، دون السقوط في مجموعة من التناقضات الذاتية، هو تطور القوى المنتجة، أي: سيطرة الإنسانية على قوى الطبيعة وعلى تطورنا الاجتماعي.

إذا كنا نعني بالتقدم حدوث تحسين في جميع مجالات الحياة لصالح الجميع، سنكون بالتأكيد عاجزين عن إيجاد أي تقدم حقيقي كبير في تاريخ البشرية منذ نهاية العصر الجليدي الأخير وما بعده. لكن وبالرغم من ذلك فإن تقدم البشرية جمعاء في تلك المرحلة واقع لا لبس فيه. إذ ما بين 5000 و2000 قبل الميلاد، زاد عدد سكان العالم خمسة أضعاف، من ما يقدر بـ 5 ملايين إلى 25 مليون نسمة[82]. يقدّر ليفيراني أن صعود الدويلات المدن الأولى قد تزامن مع ارتفاع الإنتاج بمقدار عشرة أضعاف، مقارنة بمستويات العصر الحجري الحديث[83]. هذا الارتفاع في الإنتاجية، الذي يشمل الاكتشافات في العلوم والرياضيات والفن التي ما زلنا نستخدمها حتى اليوم، قد تحقق في ظل علاقات كانت أكثر تفاوتا وقمعية، وعملت فقط على تقوية تلك العلاقات. ويمكن قول الشيء نفسه عن صعود الرأسمالية. إن ما جعل كلا من نهوض المجتمع الطبقي ونهوض الرأسمالية حدثين تقدميين ليس تفوقهما الأخلاقي المجرد، بل ضرورتهما الملموسة باعتبارهما مراحل في تطور القوى المنتجة، أي باعتبارهما الشكل الوحيد الذي يمكن أن يحدث ضمنه مزيد من التطور.

ومع ذلك، فإن حقيقة أن الاستغلال الطبقي والقمع بأشكال مختلفة كانا في وقت من الأوقات جزءا ضروريا من التطور الاجتماعي، لا يعني أنه يجب أن يكونا كذلك إلى الأبد. كانت الشيوعية البدائية ضرورية وحتمية، ومع ذلك فقد تم إسقاطها بشكل حتمي كذلك. بأي حق يمكن للمجتمع الطبقي أن يدعي أنه التعبير النهائي والمطلق عن الطبيعة البشرية، وأنه الغاية النهائية للتاريخ كله؟ في التاريخ كما في الطبيعة "كل ما هو موجود محكوم عليه بالهلاك"؛ وما كان يمثل طريقا للمضي قدما من أجل التطور، محكوم عليه في نهاية المطاف بالسقوط بفعل ذلك التطور نفسه.

كل مكسب نحققه في كفاحنا من أجل البقاء يؤدي بالضرورة إلى ظهور عقبات وتهديدات خاصة به، يجب الكفاح ضدها من أجل تحقيق مزيد من التقدم. وهذا هو الحال بشكل خاص في ظل المجتمع الطبقي، حيث «كل خطوة إلى الأمام هي أيضا خطوة إلى الوراء نسبيا، حيث يتحقق الازدهار والنمو للبعض على حساب بؤس وخراب الآخرين»[84]. وهكذا يتحقق المحتوى الحقيقي للتقدم، أي تطور قوى الإنتاج الاجتماعية، عبر سلسلة متوالية من الأشكال المحدودة والمتناقضة. فإذا كنا نجد هذه الأشكال مرفوضة اليوم، فذلك يعني أنه قد عفا عليها الزمن، لكن ذلك لا يدحض بأي حال حقيقة التقدم بشكل عام.

نعيش اليوم في عالم تصطدم فيه قوى الإنتاج، التي تطورت بالفعل، بعائق الملكية الخاصة، وما يسمى بـ"السوق الحرة"، وانقسام العالم إلى دول رأسمالية قومية. وتمثل الأزمات الاقتصادية المنتظمة والحروب الإمبريالية والأهوال المتزايدة المرتبطة بتغير المناخ، دليلا على حقيقة أنه في ظل الرأسمالية لم يعد من الممكن تحقيق مزيد من التقدم للبشرية. وحدها الإطاحة بهذا النظام البائد والمحتضر ما سيمكننا من أن نأمل في تحرر البشرية من الكابوس الذي يخلقه استمرار وجود هذا النظام. لكن هذا لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الاستيلاء على قوى الإنتاج الهائلة التي خلقها ملايير العمال المعدمين، الذين يعيشون حاليا في ظل الرأسمالية، وتخطيط الاقتصاد العالمي بطريقة عقلانية وديمقراطية. وباختصار إن تقدم البشرية غير ممكن إلا بالقضاء على المجتمع الطبقي نفسه، وجميع مظاهره البشعة، والتي ليس أقلها جهاز الدولة.

كتب فريدريك إنجلز في عام 1884:

«إننا نقترب الآن بسرعة من مرحلة في تطور الإنتاج لم يتوقف فيها وجود هذه الطبقات عن كونه ضرورة فحسب، بل أصبح أيضا عائقا فعليا أمام الإنتاج. وسوف تسقط بشكل حتمي مثلما نشأت بشكل حتمي من قبل، وستسقط الدولة معها حتما. إن المجتمع الذي سينظم الإنتاج بطريقة جديدة على أساس الاتحاد الحر والمتساوي للمنتجين سيضع آلة الدولة بأكملها في المكان الذي ستنتمي إليه: في متحف الآثار، بجوار عجلة الغزل والفأس البرونزي»[85].

لقد وصلت هذه المرحلة منذ زمن بعيد. إن شروط الإطاحة بالرأسمالية وتأسيس الاشتراكية ليست موجودة فحسب، بل إنها "بدأت تتعفن". يجب الآن أن نكافح من أجل جعل تنبؤ إنجلز حقيقة واقعة وبناء مستقبل الحرية والازدهار والأمل للبشرية جمعاء.

المصادر

1 : K Marx, "The Poverty of Philosophy", Marx & Engels Collected Works (MECW), Lawrence & Wishart, p. 192

2 : Marx, Capital vol. 1, (Penguin Classics, 1990) pg 133

3 : F Engels, "Karl Marx's Funeral", MECW, (Lawrence & Wishart, 2010), pg 467

4 : Marx, Capital vol. 1, pg 286.

5 : Marx, Capital vol. 1, pg 286.

6 : Aristotle, "Metaphysics", Aristotle in 23 Volumes, Vol. 17 (Harvard University Press, 1989), section 981b http://www.perseus.tufts.edu/hopper/text?doc=Perseus:abo:tlg,0086,025:1:981b.

7 : R Leakey, The Making of Mankind, (BCA, 1981) pg 107.

8 : S Mithen, After the Ice, (Phoenix, 2004) pg 323.

9 : Engels, The Origin of the Family, Private Property and the State, (Wellred Books, 2020) pg 29.

10 : L'oppression des femmes, hier et aujourd'hui: pour en finir demain!, June 2010, pg 31 http://cdarmangeat.blogspot.com/2016/11/une-nouvelle-version-de-ma-brochure-sur.html

11 : M Lombard & K Kyriacou, "Hunter-gatherer women", Oxford Research Encyclopedia of Anthropology, published online 28 September 2020 https://doi.org/10.1093/acrefore/9780190854584.013.105

12 : Haas et al, "Female Hunters of the Early Americas", Science Advances 6, no. 45 (1 November 2020): eabd0310. https://doi.org/10.1126/sciadv.abd0310.

13 : I Habib, People's History of India, vol. 1 (Tulika, 2015), pg 66

14 : P Draper, Institutional, Evolutionary, and Demographic Contexts of Gender Roles: A Case Study of !Kung Bushmen (University of Nebraska-Lincoln, Anthropology Faculty Publications, May 1997): https://digitalcommons.unl.edu/anthropologyfacpub/4

15 : ibid

16 : M Lombard & K Kyriacou, "Hunter-gatherer women", Oxford Research Encyclopedia of Anthropology, published online 28 September 2020 https://doi.org/10.1093/acrefore/9780190854584.013.105

17 : C Knight, Did communism make us human? https://brooklynrail.org/2021/06/field-notes/Did-communism-make-us-human

18 : A Moller, The changing women's rights of Africa's San people https://www.unearthwomen.com/2019/08/13/the-changing-womens-rights-of-africas-san-people/

19 : Habib, People's History of India, vol. 1 (Tulika, 2015), pg 41.

20 : Engels, The Origin of the Family, Private Property and the State, (Wellred Books, 2020), Preface to the First Edition, pg XXVIII

21 : Mithen, After the Ice, pg 139.

22 : ibid., pg 391.
23 : ibid., pg 136.
24 : ibid., pg 140.
25 : G Willcox and D Stordeur, "Large-scale cereal processing before domestication during the tenth millennium cal BC in northern Syria", Antiquity, (Cambridge University Press, 2012), 86(331), pp. 99–114. doi: 10.1017/S0003598X00062487.
26 : N Milner, Star Carr Volume 1, (White Rose University Press, 2018) https://doi.org/10.22599/book1.
27 : Mithen, After the Ice, pg 53.
28 : S Mithen, After the Ice, pg 37.
29 : G Hillman, et al.,"New evidence of Lateglacial cereal cultivation at Abu Hureyra on the Euphrates", The Holocene, 11(4), (May 2001) pgs 383–393. doi: 10.1191/095968301678302823.
30 : A Giddens, A Contemporary Critique of Historical Materialism, vol 1. (University of California Press 1981) pg 156.
31 : C Mann, "The Birth of Religion", National Geographic, June 2011 https://www.nationalgeographic.com/magazine/2011/06/gobeki-tepe/
32 : Engels, "Ludwig Feuerbach and the End of Classical German Philosophy", MECW, Vol. 26, pg 289.
33 : L Clare, A brief summary of research at a new World Heritage Site (2015–2019) https://lens.idai.world/?url=/repository/eDAI-F_2020-2/eDAI-F_Clare.xml#citations
34 : https://www.nature.com/articles/d41586-021-01681-w
35 : Marx, "Preface to A Contribution to the Critique of Political Economy", MECW, Vol. 29, pg 263.
36 : Marx, Capital vol. 1, pg 492.
37 : Liverani, The Ancient Near East, (Routledge 2014), pg 38
38 : S Brace et al, "Ancient genomes indicate population replacement in Early Neolithic Britain", Nature Ecology & Evolution volume 3, (2019), pgs 765–771 https://www.nature.com/articles/s41559-019-0871-9?proof=t
39 : Mithen, After the Ice, pg 60
40 : T Molleson, "The Eloquent Bones of Abu Hureyra", Scientific American 271, no. 2 (1994): 70-75. Accessed November 23, 2020. http://www.jstor.org/stable/24942804.
41 : C Hansen et al, Modern Gender Roles and Agricultural History: The Neolithic Inheritance (November 4, 2012), pg 5 http://dx.doi.org/10.2139/ssrn.2170945
42 : T Belkin et al., Woman the Toolmaker: Hideworking and Stone Tool Use In Konso, Ethiopia, (Walnut Creek, Calif.: Left Coast Press, 2006)
43 : P Cockshott, How the World Works: The Story of Human Labor from Prehistory to the Modern Day, (Monthly Review Press 2020), pg 38.
44 : A Henshall, "The Chambered Cairns", The Prehistory of Orkney BC 4000–1000 AD, (Edinburgh University Press, 1985).
45 : Engels, The Origin of the Family, Private Property and the State, (Wellred Books, 2020), pg 78
46 : Marx, "Preface to A Contribution to the Critique of Political Economy", MECW, Vol. 29, pg 263
47 : B Arnaud, "First Farmers", Archaeology Magazine Volume 53 Number 6, November/December 2000.
48 : Mithen, After the Ice, pg 59.
49 : ibid., pg 434
50 : M Liverani, The Ancient Near East, pg 48.
51 : ibid., pg 52.
52 : Marx, Capital vol. 1, pg 448.
53 : H Peoples, P Duda & F Marlowe, "Hunter-Gatherers and the Origins of Religion", Human Nature 2016; 27: 261–282, Published online 2016 May 6. doi: 10.1007/s12110-016-9260-0
54 : M Liverani, The Ancient Near East, pg 53.
55 : M Liverani, The Ancient Near East, pg 53
56 : M Liverani, The Ancient Near East, pg 62.
57 : Marx, Capital vol.1, pg 472.
58 : ibid., pg 69.
59 : ibid., pg 72
60 : ibid., pg 101.
61 : J Scott, Against the Grain: A Deep History of the Earliest States, (Yale University Press, 2017), pg 159
62 : Engels, The Origin of the Family, Private Property and the State, (Wellred Books, 2020), pg 37
63 : http://www.ancienttexts.org/library/mesopotamian/gilgamesh/tab1.htm
64 : Engels, The Origin of the Family, Private Property and the State, pg 46.
65 : L Trotsky, "The USSR in War", In Defence of Marxism (Wellred, 2020), pg 7.
66 : W Hallo & W Simpson: The Ancient Near East (New York: Harcourt, Brace, Jovanovich, 1971) pgs 25-26.
67 : https://www.worldhistory.org/article/1074/the-satire-of-the-trades/
68 : Marx, Capital vol. 1, pg 188
69 : Liverani, The Ancient Near East, pg 75.
70 : http://www.ancienttexts.org/library/mesopotamian/gilgamesh/tab2.htm.
71 : Liverani, The Ancient Near East, pg 88
72 : ibid.
73 : Liverani, The Ancient Near East, pg 89.
74 : ibid., pg 80.
75 : Engels, The Origin of the Family, Private Property and the State, (Wellred Books, 2020), pg 155.
76 : Graeber, Debt: The First 5000 Years, (Melville House, 2014), pg 19.
77 : Marx, Capital vol. 1, pg 916.
78 : V G Childe, "The Urban Revolution", The Town Planning Review (Liverpool University Press, 1950) 21 (1): 3–17
79 : Marx, Capital vol. 1, pg 876.
80 : Marx, "The Holy Family", MECW, Vol. 4, pg 93
81 : https://www.marxists.org/archive/plekhanov/1898/xx/individual.html.
82 : J Scott, Against the Grain: A Deep History of the Earliest States (Yale University, 2017), pg 4.
83 : Liverani, The Ancient Near East, pg 572.
84 : Engels, The Origin of the Family, Private Property and the State (Wellred Books, 2020), pg 46
85 : ibid., pg 159.

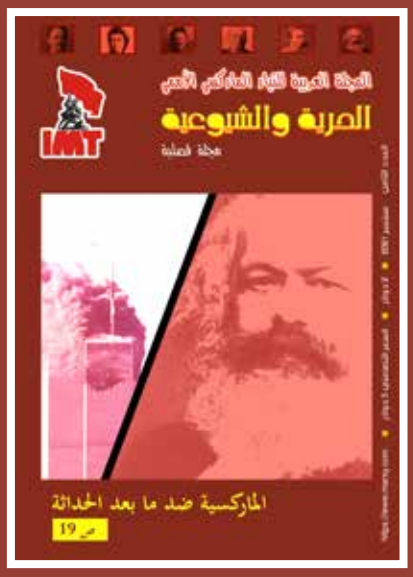

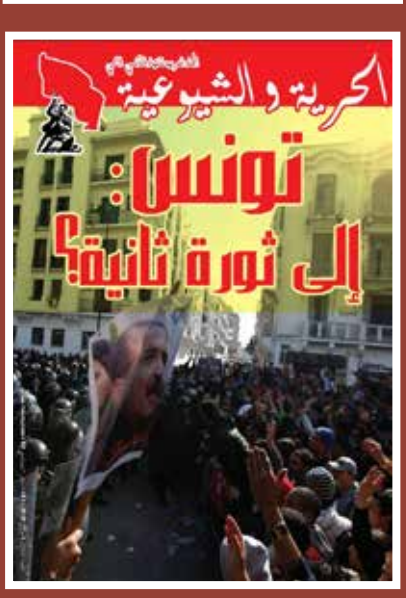

الحرية والشيوعية صحيفة تصدر عن التيار الماركسي الأممي، صدر العدد الأول من الصحيفة عام 2012 وتوقفت عن الصدور عام 2014 ، استأنفت صدورها من جديد منذ عام 2020.

ذكرى معركة أنوال

مذبحة المَلكية ورأس المال | خابيير كابريرا

ننشر فيما يلي مقالة للرفيق خابيير كابريرا، عضو منظمة الصراع الطبقي، الفرع الإسباني للتيار الماركسي الأممي، والتي كتبها بمناسبة الذكرى المائة لمعركة أنوال. تقدم المقالة وجهة نظر الطبقة العاملة والماركسيين الإسبان للمعركة وأسبابها ونتائجها، مما يكمل الصورة التي لدينا نحن عمال وماركسيو الأمم المستعمَرة عن نفس الحدث، إذ بينما نتفق على أن المعركة كانت حدثا تاريخيا وتقدميا لأنها كانت انتصارا للطرف المضطهَد، الريف، ضد الطرف المضطهِد، الإمبريالية الإسبانية، فإن ما نعتبره انتصارا عظيما من جانبنا، من الطبيعي أن تنظر إليه الطبقة العاملة الإسبانية على أنه كارثة بسبب ذلك العدد الهائل من القتلى الذين سقطوا من أبناء العمال والفلاحين، الجنود الإسبان، الذين ضحت بهم الطبقة السائدة الإسبانية على مذبح مصالحها في مغامرة إمبريالية هدفها استعباد شعب آخر واستغلاله.

بين شهري يوليوز وغشت 1921، حدث ما عُرف بكارثة أنوال، أي الهزيمة المهينة للجيش الاستعماري الإسباني في المغرب على يد قبائل الريف، التي وحدها وقادها الموظف السابق في الإدارة الاستعمارية، عبد الكريم. لقد هزت العواقب السياسية لتلك الهزيمة الحكم الملكي والنظام ككل، مما أدى إلى تسريع سقوطه.

كانت كارثة أنوال نتيجة لسلسلة من الأخطاء التكتيكية الجسيمة التي كشفت الحالة المزرية للجيش الإسباني في إفريقيا، الذي كان ينخره الفساد والاستبداد وعدم الكفاءة. كما كانت أيضا مثالا عن كيف يمكن لجيش من الفلاحين سيء التسليح لكنه متحمس، أن يهزم قوة استعمارية، وهو ما شكل مصدر إلهام كبير للنضالات ضد الاستعمار في إفريقيا وآسيا خلال العقود التالية.

المغامرة الاستعمارية في المغرب

ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر شنت المَلكية الإسبانية حملة تغلغل استعماري حقيقي في المغرب، وذلك في سياق عملية النهب الإمبريالي التي كانت القوى الأوروبية تنفذها في إفريقيا. خسارة إسبانيا، عام 1898، لما تبقى من إمبراطوريتها [في القارة الأمريكية] كانت السبب في أن صار المغرب الهدف الأساسي للنظام الملكي والرساميل العائدة والطغمة العسكرية التي تم تشكيلها في المستعمرات والتي أصبحت عاطلة عن العمل. حدد مؤتمر الجزيرة الخضراء، عام 1906، مناطق النفوذ الإسباني والفرنسي في المغرب الغارق في الفوضى. ضعف الدولة الإسبانية مقارنة مع بقية القوى الاستعمارية الأوروبية أجبرها على قبول فتات الغنائم الاستعمارية. فشملت الحماية الإسبانية، التي دخلت حيز التنفيذ ابتداء من عام 1912، أقصى شمال المغرب والجنوب، والتي هي المناطق الأقل سكانا والأكثر فقرا والأكثر تخلفا.

كان الشمال هو مسرح الأحداث التي أدت إلى الحرب المغربية وكارثة أنوال، وهو يتكون من منطقتين مختلفتين للغاية. ففي الغرب، منطقة جبالة، حول مدينة تطوان التي صارت عاصمة المحمية، وهي منطقة ناطقة باللغة العربية، وكانت تحت سلطة إقطاعي يدعى الريسوني، الذي تحول من دعم

عبد الكريم الخطابي

الإسبان إلى مواجهتهم عام 1920. وفي الشرق، منطقة الريف، وهي منطقة ناطقة باللغة الأمازيغية وخالية من أي سلطة مركزية. كان الريف جزءا مما كان يسمى بـ "بلاد السيبة" -أي البلد المتمرد على الحكم المركزي- تلك المناطق الجبلية والمتخلفة من المغرب حيث لم يكن للسلطان أي نفوذ فعلي عليها.

كانت منطقة الريف مقسمة بين عدة قبائل والتي غالبا ما كانت تتقاتل في ما بينها. في البداية تحملت العديد من تلك القبائل وجود الإدارة الإسبانية، لكن القبائل الآخرى حاربتها منذ اليوم الأول. ومن بين هذه المجموعة الأخيرة، برزت قبائل بني وريغل، التي تمتد أراضيها حول خليج الحسيمة، بقيادة عائلة الخطابي. تمكنت قبائل بني وريغل، مع موحند عبد الكريم الخطابي في دور القائد السياسي، وشقيقه امحمد عبد الكريم في دور القائد العسكري، من توحيد وتعبئة القبائل المختلفة في النضال ضد الحكم الاستعماري الإسباني.

في عام 1908 ، تأسست شركة Compañía de las Minas del Rif، التي كان الكونت رومانونيس يمتلك أغلبية اسهمها، لاستغلال مناجم الحديد في أراضي بني وريغل. أدت المعارضة المسلحة التي شنها الوريغليون ضد الاستغلال المنجمي الإسباني إلى اندلاع حرب مليلية عام 1909. كانت تعبئة جنود الاحتياط لهذه الحرب هي التي تسببت في اندلاع أعمال الشغب في برشلونة والتي أدت إلى الأسبوع المأساوي في يوليوز 1909. كانت حرب مليلية تحذيرا لما سيحدث بعد سنوات لاحقة، في سياق محاولة النظام الإسباني إخضاع قبائل الريف باستخدام العمال والفلاحين الفقراء وقودا للمدافع من أجل مجد الرأسماليين.

لخص خوان غويتيسولو أسباب فشل المغامرة الاستعمارية الإسبانية في المغرب قائلا:

«كيف سنكون قادرين على استعمار جبال الريف، بينما لم نتمكن حتى من استغلال وإعمار مناطق شاسعة من أراغون وإكستريمادورا وسييرا مورينا؟ [...] إنحدارنا الاقتصادي والثقافي لم يسمح لنا بتنفيذ مشروع التحديث الذي نفذته فرنسا وإنجلترا، على الرغم من كل الاعتداءات والجرائم، في البلدان التي استولتا عليها».[1]

كانت الحماية الإسبانية في المغرب مجرد صفقة تجارية مربحة لصالح عدد قليل من الرأسماليين والمسؤولين الفاسدين ومسألة هيبة بالنسبة للنظام الملكي. بينما عواقب هذه المغامرة دفع ثمنها الفلاحون المغاربة، والفلاحون والعمال الإسبان الذين أرسلوا لسحق مقاومتهم وذبحوا في أنوال.

جيش إفريقيا

كانت القوات الإسبانية المتمركزة في المحمية المغربية مكونة من جنود احتياط كانوا يؤدون الخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات. كانت الطريقة الوحيدة لتقصير مدة الخدمة أو تجنبها هي دفع المال، على الرغم من حقيقة أن قانون التجنيد لعام 1912 ألغى "الاعفاء مقابل المال"، فإنه قد استمر في العمل تحت الطاولة. كان أبناء العمال والفلاحين الفقراء الذين لا يستطيعون الدفع لتجنب الخدمة العسكرية يرسلون إلى المغرب، بينما يتم اعفاء أبناء الأثرياء. وقد عبر المهندس والصحفي، أرتورو باريا، الذي خدم في الحرب المغربية برتبة رقيب للمهندسين، في سيرته الذاتية، بعنوان: The Forge of a Rebel، عن مشاعر الفلاحين الذين ألقي بهم في أتون الريف، قائلا:

«لماذا علينا محاربة الموروس؟ لماذا علينا أن "نحضرهم" إذا كانوا لا يريدون أن يكونوا متحضرين؟ هل نحن من سيحضرهم؟ [...] لا توجد مدارس في مدننا، والبيوت مبنية بالطوب، وننام بملابسنا، على سرير من ثلاثة ألواح في الإسطبل، بجوار البغال، لكي نتدفأ. [...] نعاني الجوع والبؤس. السيد يسرق منا وإذا اشتكينا فإن الحرس المدني يضربوننا».[2]

وقد استخلص أرتورو باريا بنفسه هذا الاستنتاج التحذيري بعد أن عانى مباشرة من الفوضى التنظيمية التي كان الجيش يعيشها خلال عملياته في المحمية:

«ذهبت وحدات الجيش الإسباني في المغرب إلى المعركة دون أي قيادة. تم إرسال الرجال إلى الجبهة، وترك الأمر لغرائزهم لتحديد أين يتقدمون وخاصة كيفية العودة إلى قواعدهم؛ فكانت الفيالق تضيع في الليل الواحدة تلو الأخرى. عندها فهمت سبب تلك الانسحابات المأساوية في المغرب، حيث بعد كل عملية منتصرة يموت مئات الرجال في كمائن».[3]

تلك الكارثة التنظيمية التي كان يعرفها الجيش الإفريقي كان سببها، قبل كل شيء، هو انتشار الفساد. يقدم باريا العديد من الأمثلة على الممارسات الفاسدة على جميع مستويات الجيش وإدارة المحمية: شراء مواد البناء بأقل من الميزانية المعلنة، تضخيم كشوف الأجور المقدمة للعمال الأهالي، والمتاجرة في السلع الأساسية (الطعام والملابس والأغطية والمصابيح)، وبيع حيوانات سليمة تحت مبرر أنها مريضة... وكانت فوائد النهب توزع باحترام للهرمية. ولد مزيج الفساد وعدم الكفاءة والوحشية تصاعد الاستياء والإحباط بين صفوف قوات الاحتياط والمزيد من السخط والمعارضة للحرب في إسبانيا.

وإدراكا منهما لهذا الوضع، أنشأ الضابطان ميلان أستراي وفرانشيسكو فرانكو فيلق لا ليخيون (La Legión) عام 1920. كانت تلك القوة فيلقا تطوعيا مستوحى من الفيلق الأجنبي الفرنسي، الذي استقطب كلا من المرتزقة الأجانب والمجرمين والمتحللين طبقيا الإسبان. شكل ذلك الفيلق، إلى جانب قوات النظاميين المحليين (Los Regulares)، قوة الصدمة الرئيسية للإمبريالية الإسبانية في المغرب والتي سترتكب أبشع الفظائع ضد السكان والمقاتلين الريفيين.

في حرب الريف تبلورت تلك الفئة من الضباط التي نفذت انقلاب 18 يوليوز ومجازر الحرب الأهلية ومجازر ما بعد الحرب. كانت المحمية في الواقع هي المكان الذي بدأ فيه الانقلاب [الفرانكاوي]، مع تمرد جيش إفريقيا. لقد نفذ الفيلق والقوات النظامية المجزرة تلو الأخرى أثناء تقدمهم عبر شبه الجزيرة [الإسبانية] بأوامر من نفس الضباط وبنفس الأساليب الدموية التي كانت تستخدم سابقا في المغرب.

"هيا أيها الرجال"

كان الاستهتار الغبي الذي أبان عنه الجنرال سيلفستر هو الحادث الذي عبر عن الضرورة. إذ بدخوله أراضي بني ورياغل -ضدا على توجيهات الحكومة وهيئة الأركان العامة- وإطالة خطوط الإمداد بما يتجاوز ما هو ممكن وبناء مراكز تحصين دون أي أثر للمياه، وفر سيلفستر الفرصة للقوات غير النظامية الريفية لتفضح الحالة المزرية للجيش الاستعماري الإسباني. وكما قال السياسي الجمهوري إدواردو أورتيغا فإن:

«إسبانيا، بإدارتها الفاسدة والوقحة، لم توفر لجنودها المواد الضرورية. لقد سمح هذا لبعض سكان الريف، الأكثر بسالة لكن بدون تنظيم عسكري، بأن يهزموا القوات النظامية الأكثر تفوقا على الورق».[4]

كان الملك وبلاطه مصممين على تلقين "متوحشي" الريف درسا، متجاوزين الحكومة وسلم القيادة. أرسل ألفونسو الثالث عشر إلى سيلفستر برقية تتضمن الاقتراح التالي: «افعل ما أقول لك. لا تستمع إلى وزير الحرب، إنه أحمق». كما أن هناك أيضا أخبار عن برقية أخرى، لم يتم حفظها، قام فيها الملك بتشجيع سيلفستر بعبارة "هيا أيها الرجال" (أو شيء مشابه).[5]

كانت نتيجة ذلك التقدم الغبي هو أن جميع الوحدات الإسبانية تعرضت، الواحدة منها تلو الأخرى، للذبح على يد قوات بني ورياغل. قد لا يكون من الممكن على الاطلاق تحديد العدد الإجمالي للقتلى من الجنود على وجه اليقين، لكن البيانات الأكثر تحفظا الواردة في "تقرير بيكاسو" تتحدث عن حوالي 12000، من بينهم مئات الضباط، بمن فيهم الجنرال سيلفستر نفسه، والذي يبدو أنه أقدم عى الانتحار بعد الهزيمة.

أعلن الأخوان الخطابي بعد سنوات على ذلك أنهما حاولا منع إعدامات الوحدات التي استسلمت في جبل العروي وسلوان وأماكن أخرى. ومن المحتمل تماما أن تكون الكراهية المتراكمة عند القبائل الريفية بسبب سنوات القمع، إلى جانب حقيقة أن عبد الكريم كان لم يؤكد سلطته بعد، هو ما أدى إلى تلك المجزرة. وفي المقابل فإن الوحدات التي تم أسرها في الناظور قد تمت معاملتها باحترام. وقد تلقى عبد الكريم مقابل تحرير الضباط الذين أسرهم فدية قدرها ثلاثة ملايين بيسيطا والتي كانت عونا كبيرا لجمهورية الريف المشكلة حديثا. ويبدو أن رد فعل ألفونسو الثالث عشر عند علمه بدفع هذه الفدية كان هو: "يا لها من فدية باهظة الثمن".[6]

مقاتلين من جمهورية الريف

تقرير بيكاسو وانقلاب بريمو دي ريفيرا

كانت النتيجة السياسية الأولى لكارثة أنوال في إسبانيا هي سقوط حكومة مانويل أليندي سالازار وتعيين حكومة جديدة برئاسة المحافظ المخضرم أنطونيو ماورا. قامت هذه الحكومة، بناء على طلب المندوب السامي الإسباني في المغرب، الجنرال بيرينغير، بتشكيل لجنة تحقيق عُهد بصياغة تقريرها إلى الجنرال خوان بيكاسو، عم بيكاسو الرسام الشهير. منذ البداية حاول بيرينغير والحكومة تقييد نطاق تحقيقات بيكاسو، وصنفوا الاتفاقات والخطط والأحكام الخاصة بالمفوضية العليا على أنها محفوظة. لكن بيكاسو لم يوافق على هذا الأمر وأصر على التحقيق حتى أعلى مستويات القيادة. هذا الإصرار جعل بيكاسو لا يحظى بشعبية كبيرة بين الجنرالات الأفارقة، الذين كانوا يخشون أن ينتهي التحقيق إلى الملك ويفضح فسادهم.

والسبب في أن كارثة أنوال لم تتسبب في اندلاع تمرد ضد النظام الملكي يرجع أساسا إلى أنه عندما بدأ يظهر البعد الحقيقي للكارثة، في وقت مبكر من عام 1922، لم تكن الطبقة العاملة قد تعافت بعد من الهزائم التي عانت منها خلال الفترة السابقة، ولا سيما هزيمة الإضراب العام الثوري لعام 1917 والإضرابات الزراعية في السنوات التالية حتى عام 1921. ولأن الحركة كانت تعاني من التراجع، فإنه على الرغم من أن كارثة أنوال عمقت تشويه سمعة الحكم الملكي والجيش والنظام ككل، فقد اقتصر تأثيرها السياسي الفوري على البرلمان، الذي حصل بالفعل على ملف بيكاسو في عام 1922، بإصرار من اندالسيو بريطو.

تابعت الجماهير أعمال بيكاسو واللجنة البرلمانية بمزيج من الصدمة والتشاؤم. وقد تم التعبير عن هذه الحالة الذهنية في مقاطع كتبها لويس دي تابيا نُشرت في صحيفة La Libertad في 06 شتنبر 1921، تحت عنوان Ni caso، وفيها إشارة إلى المسؤولية المحتملة للملك:

«إذا سمعتم في البرقيات أو الكابلات
أن بيكاسو سيجد المسؤول...
فتجاهلوا ما سمعتم...
كانت الأخطاء صحيحة؛
لكن في مسائل الحرب،
تدفن الأسباب والموتى
في باطن الأرض...
وإذا بحث بيكاسو في القمة،
فسوف يهلك».[7]

ومع تقدم العمل البرلماني، أصبحت مسؤولية الملك في الكارثة أكثر وضوحا. كتب النائب مانويل كورديرو في صحيفة El Socialista في 09 شتنبر 1923، ما يلي:

«لقد أشعل النظام الملكي هذه الحرب من أجل الحفاظ على جيش يتجاوز الحفاظ عليه إمكانياتنا الاقتصادية، ليتمكن في حال جاءت لحظات عصيبة من قلبه ضد الشعب [...] والحرب في إفريقيا، التي هي سبب الخراب المادي في إسبانيا، لا يتم الحفاظ عليها إلا من أجل التستر على فشل النظام الملكي وعدم معرفة مكان وضع الفائض من الجنود».

بعد أربعة أيام على ذلك، استولى الحاكم العام لكاتالونيا، الجنرال ميغيل بريمو دي ريفيرا، على السلطة، بموافقة من الملك، وبالتالي حسم مصير ملكية ألفونسو. ومن خلال حله للبرلمان وضع بريمو دي ريفيرا حدا لعمل لجنة المسؤوليات ومنعها من إصدار قرار كان من الواضح أنه سوف يسلط الضوء على مسؤولية ألفونسو الثالث عشر في كارثة أنوال. لقد سمح الديكتاتور بمواصلة تحقيق القضاء العسكري، لكن ليس قبل استبدال جزء كبير من أعضائه بآخرين أكثر ميلا إلى معاملة المتهمين بطريقة ودية. وبالفعل فإنه في يونيو 1924 تمت فقط إقالة الجنرال بيرينغير من الخدمة، قبل أن تصدر الحكومة العفو عنه في الشهر الموالي.

على الرغم من جميع المناورات التي تمت لإخفاء الحقيقة فإنه كان واضحا للجماهير الإسبانية، وقدامى المحاربين والعمال، أن كارثة أنوال، وكل المغامرة الاستعمارية المغربية بأكملها كانت مسؤولية الملك وطغمة الضباط الفاسدين وقطاعات من الرأسماليين المتحلقين حول البلاط. كانت الحرب في المغرب وديكتاتورية بريمو دي ريفيرا نقطة تحول في أزمة نظام الحكم الملكي وعلامة بارزة في الطريق الذي أدى إلى الإعلان الثوري لقيام الجمهورية الثانية.

جمهورية الريف

انتصار أنوال الذي لا جدال فيه سمح لعبد الكريم بتنفيذ المهمة الهائلة المتمثلة في توحيد وتنظيم مختلف قبائل الريف لمواجهة الإمبرياليتين الإسبانية والفرنسية. كانت فرنسا تسيطر على معظم الأراضي المغربية بموافقة العائلة المالكة العلوية. وفي مواجهة هذا الوضع، قرر عبد الكريم عدم التحرك باسم السلطان، بل إنشاء جمهورية مستقلة في المناطق التي انتزعها من الحماية الإسبانية.

وبهذه الطريقة ولدت جمهورية الريف، التي كانت أول محاولة جادة لإنشاء دولة حديثة في المغرب.

تزامن ظهور جمهورية الريف مع صعود تركيا الحديثة بقيادة مصطفى كمال أتاتورك. مهمة التوحيد والتحديث التي شرع فيها عبد الكريم تمتلك أوجه تشابه كبيرة مع تلك التي قام بها الجنرال التركي، ويتفقان مشروعاهما على أنهما تم تنفيذهما في إطار حرب تحرر وطني ضد عدو أجنبي (المستعمرون الإسبان والفرنسيون بالنسبة للريف، والغزاة اليونانيون ودول الوفاق بالنسبة لتركيا). لكن بالطبع كان على عبد الكريم أن يحكم منطقة أكثر تخلفا من الناحية الاقتصادية والثقافية عن المناطق المركزية للإمبراطورية العثمانية المنهارة.

كانت الخطوة الأولى في بناء تلك الدولة هي تشكيل ميليشيا موحدة ومركزية تمكنت، بقيادة امحمد بن عبد الكريم، من توسيع أراضي الجمهورية إلى منطقة جبالة، واستولت على الشاون عام 1924. بحلول ذلك الوقت صارت أراضي المحمية الإسبانية تقتصر على ساحل المحيط الأطلسي والمناطق المحيطة بتطوان وسبتة ومليلية. كان رد الإمبريالية الإسبانية هو القصف المستمر للريف باستخدام الأسلحة الكيميائية، مثل العامل البرتقالي، مما تسبب في العديد من الضحايا المدنيين وخلف عواقب وخيمة على أراضي وسكان الريف.

انتصار أنوال الذي لا جدال فيه سمح لعبد الكريم بتنفيذ المهمة الهائلة المتمثلة في توحيد وتنظيم مختلف قبائل الريف لمواجهة الإمبرياليتين الإسبانية والفرنسية. كانت فرنسا تسيطر على معظم الأراضي المغربية بموافقة العائلة المالكة العلوية. وفي مواجهة هذا الوضع، قرر عبد الكريم عدم التحرك باسم السلطان، بل إنشاء جمهورية مستقلة في المناطق التي انتزعها من الحماية الإسبانية. وبهذه الطريقة ولدت جمهورية الريف، التي كانت أول محاولة جادة لإنشاء دولة حديثة في المغرب.

عبد الكريم، من خلال تجربته السابقة موظفا في إدارة الحماية، كان مدركا تماما للنزيف الذي يسببه التواجد في الريف للدولة الإسبانية، كما كان مدركا للمعارضة التي كانت قائمة بين الطبقة العاملة والمثقفين الإسبان تجاه الحرب في المغرب. كانت السياسة الخارجية لجمهورية الريف تهدف إلى الحصول على تضامن عالمي في الدفاع عن حقها في تقرير المصير، وهو ما حققته من جانب اليسار الإسباني في ذلك الوقت. وهذه القطعة من رسالة من حكومة جمهورية الريف إلى الحكومة الإسبانية دليل على هذا المنحى:

«نحن مندهشون من أنهم يتجاهلون مصالح إسبانيا نفسها من خلال عدم عقد السلام مع الريف، من خلال الاعتراف باستقلاله، وبالتالي تعزيز علاقات حسن الجوار، بدلا من إذلال شعبنا وتجاهل جميع المذاهب الإنسانية وتشريعات القانون الدولي، على النحو الوارد في معاهدة فرساي الموقعة بعد الحرب الكبرى [الحرب العالمية الأولى]».[8]

ومن جانبها ردت الإمبريالية الفرنسية على إنشاء جمهورية الريف من خلال عسكرتها للمناطق الحدودية لحميتها، والتي سرعان ما تسببت في صراعات مع السكان المحليين، الذين طلبوا مساعدة عبد الكريم. كان رده هو شن هجوم على مدينة فاس، والذي على الرغم من انتصاره في البداية (معركة ورغة)، كان نقطة التحول في الحرب من خلال التسبب في مشاركة أكبر من طرف القوات الفرنسية في الصراع. وأخيرا، في شتنبر 1926، هُزمت جمهورية الريف من خلال العمل الفرنسي-الإسباني المشترك، الذي تحقق في إنزال الحسيمة في الثامن من ذلك الشهر. كان إنزال الحسيمة أكبر عملية برمائية في التاريخ حتى تلك اللحظة، وقد أظهرت أنه لا يمكن للإمبريالية الإسبانية أن تهزم جمهورية الريف إلا بمساعدة فرنسا الأقوى.

لكن وعلى الرغم من هزيمتها في النهاية، فقد بقيت تجربة جمهورية الريف مصدر إلهام للنضالات الثورية المناهضة للإمبريالية خلال العقود التالية، وبقيت رموزها وتقاليدها حية في الذاكرة الجماعية للريفيين على الرغم من قمع النظام المغربي. وخلال انتفاضة الريف عام 2016، عاد علم جمهورية الريف ليرفرف بفخر مرة أخرى على يد جيل جديد استيقظ للكفاح ضد الاضطهاد.

الهوامش

1: Goytisolo, Juan: Alquibla, RTVE, 1993, disponible en RTVE Play
2: Barea, Arturo: La forja de un rebelde. Vol. II: La Ruta. Londres, Arturo Barea y herederos, 1951
3: Ibid.
4: Ortega y Gasset, Eduardo, Annual: relato de un soldado e impresiones de un cronista, 1922.
5: Rubio, Antonio, El desastre de Annual a través de la prensa, Madrid, Libros.com, 2021.
6: https://blogsaverroes.juntadeandalucia.es/aldeacordoba/?tag=desastre-de-annual
7: Alía Miranda, Historia del ejército español y de su intervención política, Madrid, Los libros de la catarata, 2018.
8: Citado por Martín, Miguel: El colonialismo español en Marruecos (1860-1956). Madrid: Club de Amigos de la UNESCO, 2002.

عنوان النص الأصلي:
A cien años del Desastre de Annual: una masacre a mayor gloria de la monarquía y del capital

22 شتنبر/أيلول 2021

سيصدر قريبا عن صحيفة الحرية والشيوعية

الماركسية وسياسات الهوية

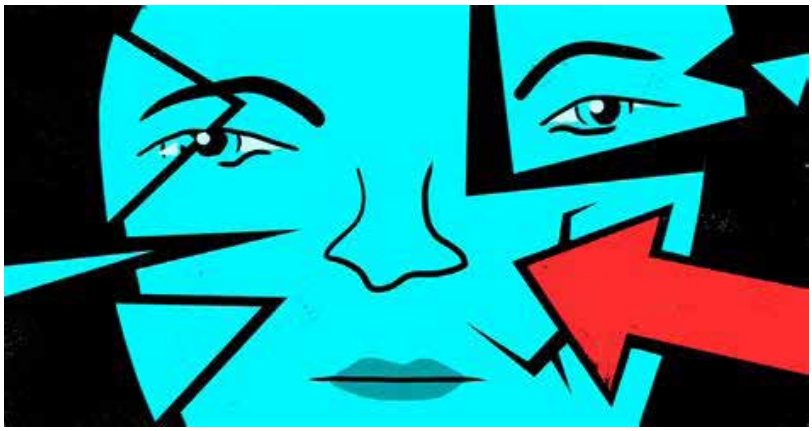

اصدار خاص حول موقف الماركسية من سياسات الهوية وهي وثيقة صدرت بعنوانها الأصلي : النظرية الماركسية والنضال ضد الأفكار الدخيلة على الطبقة العاملة، **تمت المصادقة عليها بالإجماع من قبل المؤتمر العالمي للتيار الماركسي الأممي، الذي عقد في نهاية يوليو 2018**، وذلك بعد مناقشة شاملة على جميع مستويات التيار الماركسي الأممي قبلها بعام. هدف الوثيقة هو رسم خط فاصل بين الماركسية وبين مجموعة من الأفكار الطبقية الدخيلة المثالية وما بعد الحداثية، والتي أثرت، لبعض الوقت، على شريحة من النشطاء في الأوساط الأكاديمية، وتلعب دورا رجعيا داخل الحركة العمالية العالمية.

لعبة الحبار

لا فائزين في ظل الرأسمالية

راج ميستري

سلسلة لعبة الحبار (Squid Game)، هو أحدث إنتاج للسينما الكورية الجنوبية، تكشف ببراعة الواقع الوحشي الذي تعيشه الجماهير في ظل الرأسمالية، أي في ظل المنافسة الشديدة. وفي نفس الوقت الذي يتصدر فيه المسلسل قائمة المشاهدات على نتفليكس في جميع أنحاء العالم، يستعد العمال الكوريون لخوض إضراب عام.

في المسلسل التلفزيوني الخيالي الشهير لعبة الحبار للمخرج هوانغ دونغ هيوك، يخاطر المتسابقون، المثقلون بالديون، بحياتهم من أجل الحصول على فرصة كسب ثروة هائلة في مسابقة يحكم فيها على الخاسرين بالموت.

تعكس لعبة الحبار، من وراء روعة التمثيل والرسومات العنيفة، الفظائع الحقيقية للرأسمالية وعذابات احتضارها. وبالتالي فلا عجب أنها اجتذبت عددا كبيرا من المشاهدين واهتماما إعلاميا كبيرا حتى في الصحافة البريطانية.

في سلسلة نتفليكس هذه التي تتصدر قائمة المشاهدات (تحتل المرتبة الأولى حاليا في أكثر من 90 بلدا)، نرى مئات الكوريين الفقراء يتنافسون في سلسلة من الألعاب المميتة للفوز بجائزة نقدية قدرها 30 مليون جنيه إسترليني. يتتبع المسلسل حياة هؤلاء البؤساء الذين توحدهم معاناتهم في ظل الرأسمالية ورغبتهم الشديدة في الفوز.

اليأس

يبدأ العرض بتقديم الشخصية الرئيسية، سيونغ جي هون، وهو يصارع حياة بائسة مثقلة بديون القمار والعلاقات الأسرية المتوترة. وعندما يدعوه شخص غريب للمشاركة في مسابقة مقابل جائزة كبيرة جدا، يبدو العرض مغريا بحيث لا يمكن رفضه.

كل جولة وحشية من جولات اللعبة تخلق خصاصا (مصطنعا) لدفع المشاركين نحو اتخاذ تدابير يائسة أكثر فأكثر.

يتم توزيع الطعام بشكل غير عادل، ويتم التغاضي عن العنف، وتتم مكافأة الخيانة. وتتحول الانقسامات إلى تعصب أعمى بحيث يتجنب المتسابقون التضامن على أساس العرق والجنس والعمر.

وفي هذا السياق تتأكد صحة كلمات ماركس حين يقول: «عندما يصبح البؤس معمما، تصعد جميع زبالة المجتمع القديم إلى السطح مجددا».

اللاعبون أحرار في مغادرة المنافسة، إذا صوتت الأغلبية لصالح ذلك. ومع ذلك فإن هذه الحرية مجرد وهم، مثلها مثل الديمقراطية البرجوازية.

وحتى إذا سنحت للمتسابقين فرصة العودة إلى حياتهم المعتادة، فإنهم يواجهون الحقيقة القاتمة التي لا مفر منها لوجودهم. وكما عبرت عن ذلك إحدى الشخصيات بحزن، فإن الحياة «سيئة هناك مثلما هي هنا».

يتم فرض القواعد من خلال تسلسل هرمي صارم لقوات من الرجال الملثمين المسلحين. إنهم يحتكرون العنف بشكل كامل، ويستخدمون المسدسات والرشاشات لإعدام اللاعبين الذين يخالفون القواعد أو الذين يخسرون الجولة. وفي هذا الصدد يعتبر من الصعب تجاهل أوجه التشابه بينها وبين الأجهزة الأمنية للطبقة الحاكمة الكورية.

لكن أوجه التشابه بين الخيال والواقع ليست مجرد مصادفة. فكما قال المخرج هوانغ دونغ هيوك: «أردت أن أكتب قصة رمزية أو حكاية عن المجتمع الرأسمالي الحديث، شيء يصور منافسة شديدة، تشبه إلى حد ما المنافسة الشديدة الموجودة في الواقع».

ما وراء الشاشة

تنضم سلسلة لعبة الحبار إلى مجموعة متزايدة من الانتاجات السينمائية الواقعية الاجتماعية الكورية، مثل الطفيلي (Parasite) والمضيف (The Host)، التي تعرض بدورها الاستغلال الطبقي في كوريا الجنوبية. لعبة الحبار، وعلى الرغم من موضوعاتها السريالية، ليست بعيدة جدا عن الظروف المادية المرهقة التي يعيشها العمال الكوريون الجنوبيون في الحياة الواقعية.

شهدت كوريا الجنوبية عام 2020 أسوء أزمة بطالة منذ عام 1997. تفاقمت البطالة بسبب الجائحة، إلا أن كوريا كانت تشهد أكثر من عقد من التراجع المطرد في التوظيف. يبلغ معدل البطالة بين الشباب 9,5%. وبالتالي لا عجب في أن الشباب الكوري يطلقون على وطنهم اسم "كوريا الجحيم".

الشيخوخة والتقاعد لا يقدمان أي أمل للشباب والعمال في كوريا الجنوبية. ففي حين أنه في المملكة المتحدة تبلغ نسبة الفقر بين الأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن 66 عاما 15% "فقط"، فإن 43% من كبار السن في كوريا الجنوبية يعيشون الفقر. ومع تزايد شيخوخة السكان، وعدد الوفيات الذي يفوق عدد المواليد، أصبح كبار السن فئة مضطهَدة أخرى في ظل الرأسمالية.

المخرج هوانغ دونغ : مخرج المسلسل

«أردت أن أكتب قصة رمزية أو حكاية عن المجتمع الرأسمالي الحديث، شيء يصور منافسة شديدة، تشبه إلى حد ما المنافسة الشديدة الموجودة في الواقع».

أغلال الديون

توفر الجائزة النقدية الكبيرة لكل المتسابقين في لعبة الحبار، فرصة للهروب من عبودية الديون. في الواقع، لقد ارتفعت ديون الأسر في كوريا الجنوبية بشكل صاروخي، حيث بلغ متوسط ديون الأسر بالنسبة إلى دخلها 191%. وإجمالا فإن مجموع ديون الأسر الكورية يصل إلى 1,54 تريليون دولار.

وبينما يعاني المتسابقون في عالم لعبة الحبار الخيالي، والعمال في العالم الحقيقي، من ثقل ديونهم، فإن حكومة كوريا الجنوبية لم تجد حلا أفضل من إضافة المزيد من الديون. في عام 2019، بلغ الدين العمومي 726 مليار دولار، ومن المتوقع أن يصل إلى تريليون دولار بحلول العام المقبل.

الإمبريالية

مع اقتراب نهاية السلسلة، نتعرف على الضيوف المهمين الذين يمولون لعبة الحبار. وفي حين أن المتسابقين وطاقم اللعبة هم كوريون، فإن هؤلاء المراقبين الأثرياء لديهم في الغالب لهجات أمريكية.

وكما هو الحال في فيلم المضيف، فإن الشخصيات الأمريكية المهمة في سلسلة لعبة الحبار غير مبالية بمعاناة الشخصيات الكورية، وتعطي الأولوية للمكاسب المادية على أي حس أخلاقي.

في العالم الحقيقي، تواصل الولايات المتحدة استخدام الطبقة العاملة الكورية كبيادق في ألعابها الإمبريالية. وفي وقت كتابة هذا المقال، كانت كوريا الشمالية تحاول التوصل إلى سلام مع جيرانها الجنوبيين. في حين تقوم الحكومة الكورية الجنوبية باستعراض قوتها العسكرية المدعومة من الولايات المتحدة بصاروخ باليستي جديد تطلقه الغواصات.

الإضرابات

بينما تعاني الطبقة العاملة الكورية من الاضطهاد المزدوج من طرف الطبقة الرأسمالية الكورية، المكونة من التشايبول (التكتلات الصناعية الكورية التي تديرها عائلات ثرية)، والإمبريالية الأمريكية، فإن لها تاريخ كفاحي.

عام 2015، شهدت كوريا الجنوبية موجة من ثلاثة إضرابات عامة. بقيادة الكونفدرالية الكورية للنقابات العمالية (KCTU)، حيث خرج عشرات الآلاف من العمال إلى الشوارع للاحتجاج ضد الرئيسة اليمينية، بارك كون هي، وقوانينها المعادية للعمال.

ردا على ذلك شنت الدولة قمعا جماعيا وحشيا، ونفذت اعتقالات استهدفت القادة النقابيين. وعلى الرغم من إقرار تلك القوانين، بعد إدخال تعديلات طفيفة، فإن الطبقة العاملة الكورية قد استخلصت دروسا مهمة من ذلك النضال.

تحشد الكونفدرالية الكورية للنقابات العمالية في هذا الشهر [أكتوبر 2021] لخوض إضراب عام جديد في 20 أكتوبر، للتعبير عن غضبهم من النظام الاستغلالي. ومن أجل الترويج للإضراب أصدرت الكونفدرالية الكورية للنقابات العمالية إعلانها الخاص باتباع أسلوب لعبة الحبار تحت اسم "لعبة الاضراب العام".

الثورة

من الواضح أن الوعي الطبقي العام آخذ في الارتفاع، مدفوعا بتدهور الأوضاع المادية.

معاناة سيونغ جي هون، ورفاقه الآخرون المثقلون بالديون المشاركون في لعبة الحبار، ليست مقتصرة على الشاشة الصغيرة ولا على كوريا الجنوبية. إذ لا يوجد أي حل في ظل الرأسمالية، مثلما لا يوجد في تلك الألعاب الدموية.

إن الحل بالنسبة للطبقة العاملة الكورية هو الثورة. يمكن للحركة العمالية الموحدة حول مطالب اشتراكية ملموسة، والمدعومة من طرف الكونفدرالية الكورية للنقابات العمالية والمنظمات العمالية الأخرى، أن تسقط أرباب العمل والإمبرياليين، وتضع شركات التشايبول وغيرها من الشركات تحت سيطرة العمال.

11 أكتوبر/ تشرين الأول 2021

"لا تنظروا إلى الأعلى"

لا تتركوا مهمة إنقاذنا لليبراليين

لبني بادي

يعد فيلم أدم مكاي "Don't Look Up" ["لا تنظروا إلى فوق"] (المتاح على Netflix) أحد أكثر الأفلام إثارة للجدل خلال العام المنصرم، إذ أثار الغضب بين صفوف اليمين الرجعي ومن يسمون بالليبراليين "التقدميين" على حد سواء.

فكرة الفيلم بسيطة للغاية، حيث نتتبع عالمة الفلك وطالبة الدكتوراه، كيت، (التي تلعب دورها جينيفر لورانس) والأستاذ المشرف على بحثها، البروفيسور ميندي، (الذي يلعب دوره ليوناردو دي كابريو)، وقد اكتشفا مذنبا هائلا يتجه مباشرة نحو الأرض، ثم يحاولان تحذير العالم من أن خطر تدميره للأرض يصل إلى نسبة 99,7%.

المذنب تلميح واضح إلى تغير المناخ، واحتمال 99,7% هو إشارة إلى النسبة المئوية للعلماء الذين يتفقون على أن تغير المناخ حدث حقيقي وأن النشاط البشري مسؤول عنه.

لكن وكما هو الحال مع الكارثة المناخية الوشيكة، فإن الطبقة السائدة في فيلم "لا تنظروا إلى فوق"، لا تستطيع أن ترى أبعد من أنفها، متجاهلة التهديد الوشيك لأجل خدمة مصالحها الضيقة.

الكلبية

فيلم "لا تنظروا إلى فوق" يدور في الأساس حول كيف أن الطبقة الرأسمالية -على الرغم من امتلاكها الموارد والتكنولوجيا لحل الأزمات المميتة التي تواجه البشرية- تعمل دائما على إعطاء الأولوية لأرباحها على حساب حياة ملايير البشر البسطاء.

لهذا الغرض يعتبر هذا الفيلم، مثله مثل نسخة معاصرة من فيلم "دكتور سترينغلوف"، جيدا في فضح الحسابات الكلبية للمؤسسة الرسمية.

تم تقديم الرئيسة الأمريكية (التي تلعب دورها ميريل ستريب) على أنها صورة كاريكاتورية لدونالد ترامب، مع إضافة بعض سمات هيلاري كلينتون. وعندما حاول عالمي الفلك في البداية تنبيه الرئيسة إلى الخطر الوجودي الذي يمثله المذنب، بدأت بحساب التأثير المحتمل للأخبار على انتخابات التجديد النصفي المقبلة، وخلصت إلى أن إخبار الناس عن المذنب قد لا يكون مفيدا لحملتها.

وبالمثل يُظهر الفيلم إفلاس الإعلام الرأسمالي (من كل الأطياف)، الذي يهتم فقط بحجم المبيعات من الصحف والإعلانات- والحفاظ على الوضع القائم- أكثر من اهتمامه بقول الحقيقة.

بعد أن أحبط العالمان من سلبية الرئيسة، حاولا التحدث مباشرة إلى وسائل الإعلام. لكنهما وجدا أن أخبارهما بالكاد تذكر. وبدلا من ذلك أخبر مذيعو التلفزيون العالمين أنه عليهما تقديم الخبر المروع بطريقة "معتدلة وخفيفة وممتعة". بينما يتم، في الوقت نفسه، استجوابهما حول ما إذا كان المذنب حقيقي بالفعل، وما إذا لم يكن كل هذا مجرد كذب، وما إذا كان كوكب الأرض في خطر بالفعل.

وفي غضون ذلك قررت الصحف الليبرالية عدم نشر القصة، وكذلك لم يلاق محللو وسائل التواصل الاجتماعي سوى القليل من النقاش عبر الإنترنت، وبالتالي فرصة ضئيلة لجذب الإعلانات.

لا عجب في أن العديد من نقاد السينما المعروفين قد استقبلوا الفيلم -ورسالته السياسية- بشكل سلبي وحاد.

الربح

لم تقرر الرئيسة البدء في اتخاذ إجراءات إلا عندما تراجعت في صناديق الاقتراع. لكن وبمجرد إطلاق الصواريخ في الفضاء لتفجير المذنب وإخراجه عن مساره، غيرت رأيها، بعد أن أقنعها الملياردير مالك شركة BASH -وهي شركة تكنولوجية كبيرة- أن المذنب هو في الواقع فرصة لتحقيق أرباح هائلة.

الرئيس التنفيذي لشركة BASH ، بيتر إنشيرويل (الذي يلعب دوره مارك ريلانس)، هو مزيج واضح من كل من إيلون ماسك ومارك زوكربيرغ وستيف جوبس وجيف بيزوس. يقترح التنقيب عن الموارد المعدنية الموجودة في المذنب، التي تبلغ قيمتها تريليونات الدولارات. وعندما تم تسريب خبر خطته، أطلقت الإدارة حملة دعائية كلبية زعمت فيها أن نشاط التنقيب سيخلق المزيد من فرص العمل.

فشلت خطة إنشيرويل لاستخراج المعادن النادرة من المذنب وتحطيمه إلى عدة قطع غير مؤذية. ومع ذلك فقد كانت له هو والرئيسة -إضافة إلى بضع مئات من أعضاء النخبة فائقي الثراء- خطة احتياطية وهي: الهروب من الأرض على متن مركبة فضائية والاستقرار على كوكب آخر بعيد، تاركين الجميع ليموتوا.

وبالفعل نرى اليوم أنه بينما يواجه ملايير البشر العواقب الوخيمة لتغير المناخ، ينطلق أصحاب الملايير، مثل ماسك وبيزوس، إلى الفضاء من أجل إرضاء غرورهم. وبعبارة أخرى لا يمكن الوثوق بالرأسماليين لإنقاذ هذا الكوكب، فهم بالفعل يعيشون على كوكب آخر.

العجز

وفي نفس الوقت نجد أن فيلم "لا تنظروا إلى فوق" يعمل -سواء بوعي أو بغير وعي- على تسليط الضوء على إفلاس وعجز الليبرالية والليبراليين.

عندما صار المذنب مرئيا في السماء ليلا، أطلق علماء الفلك حملة "انظروا إلى فوق" لإقناع الرئيسة بتدميره.

لكن وبدلا من السعي إلى تغيير المجتمع من خلال النضال الجماهيري، تستند هذه الحملة إلى الأنشطة الليبرالية، أي عبر "رفع الوعي" من خلال حفلات البوب وما إلى ذلك، وعن طريق مطالبة السياسيين بأدب بفعل شيء ما، دون أي تدخل من الجماهير.

كيت، على سبيل المثال، تقول للرئيسة، شبيهة ترامب: «أنا لم أصوت لك. لكن من الواضح أن هذا أكبر بكثير من شكوكي. لذلك سأكون 100% وراء هذا المجهود. بغض النظر عن موقفي منك».

أي أنها، بمعنى آخر، تقول إن هذه ليست مسألة سياسية، وأنه يجب وضع خلافاتهم جانبا وأن يتحدوا معا.

لكن مثل هذه المناشدات أثبتت عدم جدواها، حيث أن الطبقة السائدة تتجاهل تماما كل هذه المناشدات الليبرالية لصالح اهتماماتها الضيقة.

الطبقة العاملة

لا يمكن لليبراليين أن يذهبوا أبعد من مثل هذه النداءات العاجزة، لأنهم غير قادرين على رؤية أن الحل يوجد عند الطبقة العاملة. بل إن الفيلم، في الواقع، يصور الطبقة العاملة على أنها مجموعة من البلداء والأغبياء.

فقد تم تصويرهم ببساطة على أنهم أشخاص يقومون بأعمال الشغب والنهب، من جهة، كما أن أنصار حملة الرئيسة "لا تنظروا إلى فوق"، هم تلميح ساخر إلى أنصار ترامب من الطبقة العاملة. ويسخر الفيلم من كيف يمكن لبعض الناس أن يصدقوا فكرة أن التنقيب عن المعادن في المذنب "سيخلق فرص عمل".

هذا مثال نموذجي عن عجز المؤسسات الليبرالية عن فهم ظاهرة ترامب. لقد اكتسب الرئيس السابق شعبية بين شريحة من الطبقة العاملة بفعل الوعود التي قدمها بتنشيط الاقتصاد الأمريكي.

وفي غضون ذلك كان ملايين العمال والشباب العاديين يشعرون باشمئزاز معقول من البديل الليبرالي، الذي كانت تمثله مرشحة المؤسسة هيلاري كلينتون.

يظهر طوال الفيلم أن الليبراليين، لا يستطيعون فهم الإمكانات الثورية التي تمتلكها الطبقة العاملة. بل حتى فكرة الثورة نفسها يتم

لا يمكن لليبراليين أن يذهبوا أبعد من مثل هذه النداءات العاجزة، لأنهم غير قادرين على رؤية أن الحل يوجد عند الطبقة العاملة. بل إن الفيلم، في الواقع، يصور الطبقة العاملة على أنها مجموعة من البلداء والأغبياء.

الاستهزاء بها عندما يطرح الأستاذ ميندي على كيت سؤالا استنكاريا: "ماذا تريدين أن تفعلي؟ إسقاط الحكومة؟!"، لكن هذا بالضبط هو ما يجب القيام به.

إذا كان الكوكب بأكمله -ومعه حياة ثمانية مليارات إنسان يعيشون عليه- معرضا للخطر، وعلى وشك الضياع لمجرد جعل الأثرياء أكثر ثراء، فإن اقتراح أخذ الأمور بأيدينا سيكون أمرا معقولا للغاية.

التشاؤم

الفيلم في نهاية المطاف متشائم للغاية وذو نزعة قدرية: إنه انعكاس لنظرة الليبراليين الذين لا يرون سوى الكآبة واليأس مع استمرار الرأسمالية في الانحطاط. بينما ليس لديهم أي حل ليقدموه سواء تعلق الأمر بمسألة المناخ أو الجائحة، أو حتى التمييز الجنسي والعنصرية.

بالطبع، هذا ليس الفيلم الأول الذي يدور عن مذنب يهدد كوكبنا، انظروا فيلم Deep Impact أو Armageddon، على سبيل المثال. ومع ذلك فإنه من الواضح للغاية مدى الثقة، التي عبر عنها هذين الفيلمين السابقين، في أن البشرية سيتم إنقاذها -وأنه يمكن الوثوق بالحكومة للقيام بذلك بكفاءة- مقارنة مع ما يطرحه فيلم "لا تنظروا إلى فوق" الجديد.

أما اليوم فقد تبخرت مثل تلك الأوهام بسبب الطريقة البئيسة التي ردت بها الطبقة السائدة على الأزمة الرأسمالية وتغير المناخ والجائحة. وصحيح أنه إذا تُركت مثل هذه القضايا للطبقة الرأسمالية لكي تحلها، فستكون النتيجة هي موت الملايين من الناس العاديين.

الثورة

يقدم فيلم "لا تنظروا إلى فوق" صورة صارخة عن قسوة الطبقة السائدة في مواجهة الكارثة. لكن ما فشل الفيلم فيه هو عدم تقديمه لأي حل للأزمات التي تواجه البشرية. وهذا يعود في النهاية لحقيقة أن الفيلم تم إنتاجه من وجهة نظر ليبرالية وليست اشتراكية.

في نهاية الفيلم يدرك أبطال الفيلم أن كل شيء قد ضاع، وأنه محكوم عليهم بالفناء، فتقول كيت: "أنا ممتنة لأننا على الأقل حاولنا". لكن هل حاولا بالفعل؟

إن مطالبة الرأسماليين بأدب بأن يتخلوا عن أرباحهم من خلال إطلاق حملة مسالمة، كانت محاولة محكومة بالفشل. وعندما فشلت حملتهم، كما كان متوقعا، استسلموا لمصيرهم، وعادوا إلى أهلهم، وطلبوا العزاء في الدين.

ومع ذلك، فقد صدر هذا الفيلم في فترة تشهد خروج ملايين المحتجين من جميع أنحاء العالم إلى الشوارع بسبب قضايا المناخ وحياة السود مهمة وضد التقشف... لكنه يتجاهل كليا إمكانية تولي الطبقة العاملة السلطة بأيديها لحل الأزمة.

إن الليبراليين والإصلاحيين المتشائمين غافلون عن حقيقة أنه مع تدهور الرأسمالية، هناك مجتمع جديد يكافح من أجل أن يولد.

وعلى النقيض من ذلك فإننا نحن الماركسيين مملوئون بالتفاؤل الثوري، والثقة في قدرة العمال والشباب على تغيير المجتمع وتقرير مصيرهم بأنفسهم.

نحن بحاجة إلى أخذ مصيرنا بأيدينا وصنع مستقبلنا. وبينما يكتفي الليبراليون بالجلوس والنواح، نناضل نحن من أجل مجتمع اشتراكي قائم على خدمة مصالح الطبقة العاملة.

11 يناير/ كانون الثاني 2022

التيار الماركسي الأممي خلال 2021

عام من النضال والكفاح!

كان عام 2021 عاماً آخر يتسم بالتقلبات والانعطافات الحادة في الوضع العالمي. لقد شهدنا تعافياً متعثراً وفوضوياً من أزمة 2020، والذي يدفع العمال الآن إلى النضال من أجل الدفاع عن أجورهم. هذه التشنجات تطرق وعي الملايين من العمال والشباب. هذا التغيير في الوعي، على الرغم من أنه قد يبدو في كثير من الأحيان غير محسوس، يمهد الطريق لعصر من النضال الثوري. الثقة في الطبقة السائدة القديمة، والسياسيين، ووسائل الإعلام، وقوات الشرطة، وكل المؤسسات الأخرى تنهار شيئاً فشيئاً. هناك مزاج هائل مناهض للمؤسسة الحاكمة، وحتى المزاج المناهض للرأسمالية يتطور بين شرائح واسعة من الجماهير - ليس في بلد واحد، ولكن في كل البلدان حول العالم.

الرأسمالية لن تسقط بمحض إرادتها - لا في عام 2022، ولا في أي وقت! سوف تسقط عندما يتم الإطاحة بها، ومن أجل الإطاحة بالرأسمالية تحتاج الطبقة العاملة إلى أفكار واضحة. هذا ما نهدف إلى بناءه في التيار الماركسي الأممي. على حجر الأساس الراسخ للنظرية الماركسية، نهدف إلى بناء منظمة ماركسية من كوادر مدربة نظرياً، متجذرة في حركة الطبقة العاملة. تشكل جهود هذا الموقع جزءًا من هذا المسعى الجماعي.

لقد استطعنا أن نحقق نموا قياسيا على المستوى العالمي خلال سنة 2021، في المؤتمر الأخير للتيار الماركسي الأممي تم الإقرار الرسمي بفروع ومجموعات في 32 بلد. إلا أننا نعمل في كل الأماكن التي لدينا فيها علاقات مع رفاق أفراد على إنشاء مجموعات جديدة، وفي الأماكن التي لدينا فيها مجموعات نعمل على بناء أسس ثابتة لفروع جديدة.

وبالإضافة إلى المؤتمر العالمي للتيار الماركسي الأممي الذي نظم خلال فصل الصيف، فقد نظمت فروع التيار العديد من المؤتمرات المحلية والمدارس والجامعات، سنستعرض أهمها في هذا التقرير.

المؤتمر العالمي لسنة 2021

نظم المؤتمر العالمي للتيار الماركسي الأممي خلال الفترة ما بين 24 و27 يوليوز، حيث اجتمع أكثر من 2800 ماركسي، ينتمون لأكثر من 50 بلدا حول العالم، عبر تقنية التواصل عن بعد. هذا المؤتمر كان من المقرر أن ينعقد في الأصل خلال عام 2020، لكن تم تأجيله بسبب تفشي جائحة كوفيد 19. وعلى الرغم من أن الجائحة جعلت من المستحيل تنظيم المؤتمر بشكل حضوري، فإن بثه عبر الإنترنت مكّن الآلاف من الرفاق من المشاركة لأول مرة في مؤتمر التيار الماركسي الأممي.

تم التحضير للمؤتمر بنقاشات غنية وحيوية على مستوى سياسي عال لا يمكن العثور عليه في أي منظمة أخرى. وقد دارت أهم النقاشات حول المنظورات العالمية حيث عرض آلان وودز في المداخلة الافتتاحية صورة بانورامية عن الأزمة التاريخية التي تكشفت خلال العام ونصف العام الماضيين. وعلى الرغم من أن جائحة كورونا لم تكن سبب الأزمة -التي كانت تختمر منذ عقود- فإن الأزمة والجائحة صارا مرتبطان ببعضهما البعض بشكل لا ينفصم.

وقد تلا عرض الرفيق آلان مناقشة واسعة وحيوية لهذه المنظورات أوضحت لجميع الرفاق مهام عصرنا وفرص بناء تيار ماركسي قادر على التدخل بشكل حاسم في مسار هذه الأحداث العظيمة.

إضافة إلى المنظورات تم التركيز على النقاش النظري حيث خصص المؤتمر جلسة خاصة حول «النضال من أجل الفلسفة الماركسية» وهو ما ينسجم مع شعار المؤتمر: "لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية"، المأخوذ من تحفة لينين: ما العمل؟

آخر القضايا التي طرحت في المؤتمر هي بناء المنظمة الثورية، وذلك بنقاش الخطوات التي تم إحرازها في جميع أنحاء العالم في مسار بناء التيار الماركسي الأممي.

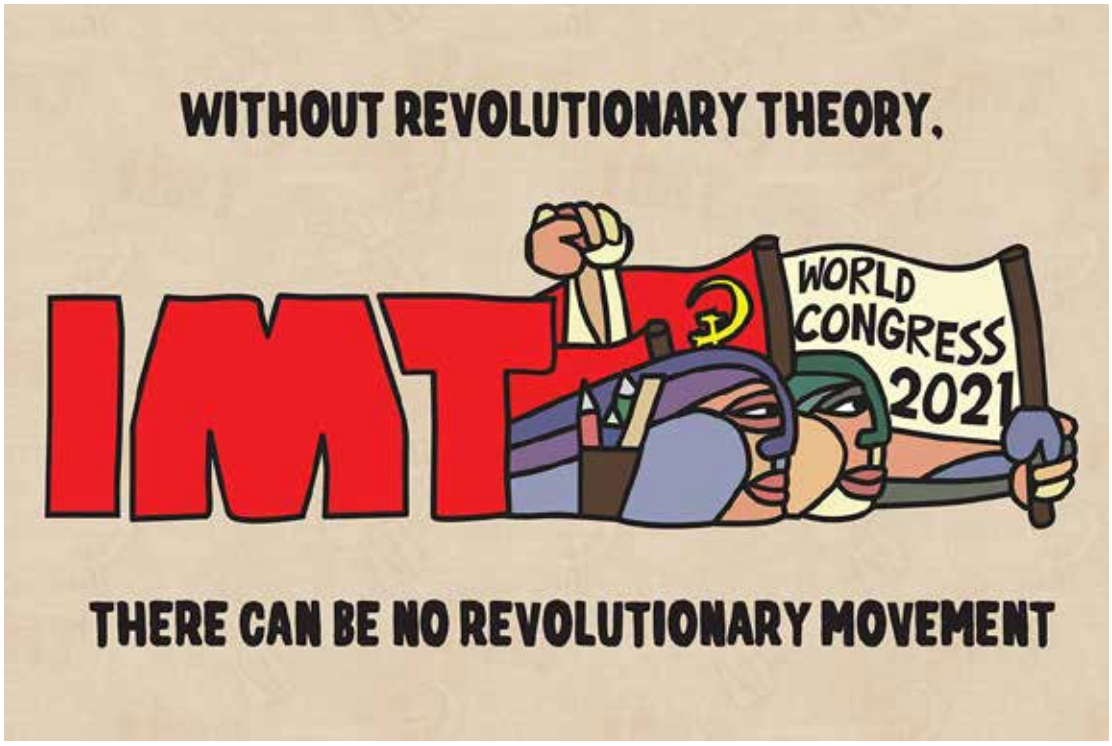

مؤتمرات الفروع

نظمت العديد من الفروع مؤتمراتها الوطنية خلال سنة 2021، ففي ألمانيا عقدت منظمة الشرارة (Der Funke) مؤتمرها خلال الفترة بين 9 و11 أبريل/ نيسان، ناقش المؤتمر باهتمام منظورات الصراع الطبقي، والمهام المنظمة الثورية.

وفي البلد الشقيق لألمانيا عقد الفرع النمساوي للتيار الماركسي الأممي، الذي يحمل نفس اسم الفرع الألماني، مؤتمره يومي 27 و28 نوفمبر/ تشرين الثاني بحضور أزيد من 160 رفيق ورفيقة، حيث ناقش الرفاق المنظورات العالمية ومنظورات النمسا.

في بريطانيا كان موعد أنصار النداء الاشتراكي (Socialist Appeal) مع مؤتمرهم الوطني بحضور 450 مناضل ومناضلة، حيث تداول الرفاق في جميع النقط المدرجة في جدول أعمال المؤتمر، وقد حقق هذا المؤتمر نجاحا كبيرا بالرغم من التضييق الذي يتعرض له الرفاق داخل حزب العمال من طرف القيادة اليمينية، حيث شارك أنصار النداء الاشتراكي بفاعلية في الحرب الأهلية الذي يعرفها حزب العمال، ودعوا التيار اليساري إلى مواجهة اليمين، وقد كانت الحملة التي أطلقها الرفاق من أجل عقد مؤتمر استثنائي للحزب نقطة مرجعية لحشد التيار اليساري.

فروع التيار الماركسي الأممي في هولندا وفرنسا صادقا على وثيقة المنظورات الوطنية خلال مؤتمراتهم، التي عقدت خلال شهر يونيو/حزيران، هذه الوثيقة تهدف إلى تحديد الاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتطوير آفاق الصراع الطبقي في الفترة المقبلة.

وخلال يومي 13 و14 مارس عقدت المنظمة الحمراء الماركسية، الفرع اليوغسلافي، مؤتمرها العادي الثاني عبر الإنترنت بسبب قيود جائحة كورونا. وقد حضر الحدث 26 مندوبًا من مقدونيا وصربيا والبوسنة والهرسك، وقد ركز المؤتمر على المناقشات السياسية حول آفاق التحول الثوري في العالم، والصراع الطبقي في البلقان، وتقوية المنظمة.

في القارة الأمريكية كان موعد الرفاق مع العديد من المؤتمرات سواء في شمال القارة أو جنوبها.

في كندا توجد منظمتين وطنيتين كلاهما فرعان للتيار الماركسي الأممي وهما: منظمة الكفاح الطبقي (Fightback) عن المنطقة الناطقة بالإنجليزية ومنظمة المنشور الاشتراكي (La Riposte Socialiste) عن منطقة كيبيك الناطقة بالفرنسية، عقدت هاتان المنظمتان المؤتمر الوطني لكندا ما بين 22 و24 مايو/ أيار، أكبر مؤتمر لهما على الاطلاق، حيث حضر أكثر من 300 رفيق ورفيقة، وتمت خلال هذا المؤتمر مناقشة المنظورات العالمية ومنظورات كندا وكذا تطور الأممية والفرع الكندي.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد كان الوضع استثنائيا، فقد عقد الفرع الأمريكي مؤتمره بشكل حضوري، وقد كان أكبر مؤتمر وطني له على الإطلاق، وذلك خلال يومي 9 و 10 أكتوبر/تشرين الأول في مدينة بيتسبرغ، وبحضور 170 رفيقا ورفيقة من أكثر من 50 مدينة و29 ولاية، ليقدم الحدث لمحة عن النطاق الوطني الحقيقي للمنظمة، التي بدأت تنغرس في كل ركن من أركان البلاد.

بالرغم من الظروف الصعبة التي تعرفها فنزويلا فقد تمكن رفاقنا في منظمة الصراع الطبقي (Lucha de Clases) من عقد مؤتمرهم التاسع في كاراكاس خلال الفترة ما بين 3 و5 دجنبر/ كانون الأول، وبروح نضالية عظيمة، حلل المشاركون وناقشوا الوضع الحالي للصراع الطبقي العالمي، ومنظورات فنزويلا، وقاموا بتقييم العمل المنجز في الفترة السابقة، وحددوا الخط السياسي الذي سيتم تطويره على المدى القصير. وعلى المدى المتوسط ، ووضع أهداف تنظيمية لتحقيقها في مواجهة بناء القوى الماركسية في فنزويلا والعالم.

في البرازيل عقدت منظمة اليسار الماركسي (Esquerda Marxista) مؤتمرها الوطني السابع في الفترة ما بين 11 و13 يونيو/ حزيران، وكعادة مؤتمرات كل الفروع افتتح المؤتمر بعرض مباشر للرفيق فريد ويستون الذي قدم تقريرا عن الوضع العالمي، ثم تلت ذلك نقاشات حول الوضع السياسي في البرازيل ومهام بناء المنظمة الثورية وانتخاب اللجنة المركزية.

جامعات ومدارس

لم تكتف فروع التيار الماركسي الأممي بعقد مؤتمراتها الوطنية فقط، فنظرا لأهمية النظرية في تصليب وبناء الكوادر والنضال ضد الرأسمالية مستحيل بدون نظرية ثورية صلبة، فقد نظمت الفروع العديد من الجامعات والمدارس التي تتجاوز البلد الواحد لتشمل منطقة أكبر أو لغة موحدة بين عدة دول.

فقد نظم التيار الماركسي الأممي النسخة الرابعة للجامعة الفرنكوفونية، حيث سهر على تنظيم هذه الجامعة فروع كل من سويسرا وبلجيكا وفرنسا وكندا، وذلك خلال يومي 20 و21 مارس، وقد غطت أشغال الجامعة العديد من القضايا النظرية والسياسية، وقبل أن تنتهي السنة نظمت الفروع الناطقة بالفرنسية النسخة الخامسة للجامعة الفرنكوفونية يومي 4 و5 دجنبر/ كانون الأول، ودمجت هذه الجامعة بين الحضور الفعلي والتواصل عبر الانترنيت، حيث نظم عروض عامة في العديد من المدن لمتابعة مناقشات الجامعة (جنيف ولوزان وباريس وتولوز وليون ومرسيليا وبروكسل ومونتريال وكيبيك وغيرها).

منظمات موازية

بالإضافة لفروعه ومجموعاته الممتدة في جميع قارات العالم، فللتيار الماركسي الأممي منظمات موازية في كثير من فروعه، خاصة في الحركة الطلابية والعمالية، وسنركز هنا على بعض الأنشطة التي نظمها كل من فدرالية الطلبة الماركسيين في بريطانيا، وكذلك الجبهة العمالية الحمراء في باكستان.

فقد عقدت منظمة فدرالية الطلبة الماركسيين يوم 13 فبراير/ شباط 2021، أكبر مؤتمر وطني لها على الإطلاق، حيث شارك فيه أكثر من مائتي طالبة وطالبة من مختلف المدارس والجامعات والمعاهد من جميع أنحاء بريطانيا.

لقد نمت الفدرالية خلال هذه السنة بشكل ملفت، حيث أصبحت تضم أزيد من 40 مجموعات طلابية. والعديد من هذه المجموعات هي المنظمات اليسارية الرئيسية في كثير من الجامعات والمعاهد، تضمن المؤتمر عروض حول المنظورات العالمية والماركسية في الجامعات ودرة القيادة ومهام المناضلين، وختم المؤتمر بعرض فيلم وثائقي حول الانتفاضة الشيلية سنة 2019.

في الجهة الأخرى من العالم، في القارة الأسيوية، نظمت الجبهة العمالية الحمراء، الذراع النقابي لمنظمة التحية الحمراء (لال سلام) الفرع الباكستاني للتيار الماركسي الأممي، مؤتمرا شارك فيه مئات العمال من القطاعين الخاص والعام، بالإضافة إلى ممثلي النقابات العمالية والطلابية وقادة حركة الفلاحين، وذلك يوم 04 دجنبر/ كانون الأول في مدينة لاهور، عقد هذا المؤتمر بعد سلسلة طويلة من الاجتماعات التي نظمت في عشرات المدن في جميع أنحاء باكستان طيلة شهر نوفمبر.

كانت الأجواء طيلة المؤتمر مشحونة، الروح المعنوية للمشاركين عالية جدا، الأمر الذي انعكس في تكرار رفع الشعارات الجذرية من طرف العمال والشباب. كما تم إصدار عدة لقرارات همت المطالب الاقتصادية الفورية للعمال والطلبة وعموم الكادحين ومطالب ديمقراطية وسياسية.

في الصفوف الأولى

لم تقتصر فعاليات وأنشطة التيار الماركسي الأممي على المؤتمرات والجامعات والمدارس، فقد شارك بحماس في مختلف الحركات الاحتجاجية في مختلف بلدان العالم، يقف مناضلو ومناضلات التيار الماركسي الأممي دائما في الصفوف الأمامية في كل الأشكال الاحتجاجية والتظاهرات العمالية، في حركة «حياة السود مهمة» في أمريكا والحركة النقابية والبيئية في أوروبا والانتفاضات الجماهيرية في أمريكا اللاتينية ومواجهة الانقلابات في ميانمار وغيرها.

في هذا الاطار تعرض الكثير من أعضائنا وعضواتنا للقمع والاعتقال والمتابعات، فقد تم اعتقال بعض رفاقنا في الفرع الإندونيسي، خلال شهر أبريل، على اثر مشاركتهم في احتجاجات ضد حضور قائد انقلاب ميانمار في قمة الأسيان.

وتمت متابعة رفيقينا أورلا مورفي وزاك لوملي في إيرلندا بعد تنظيمهما شكلا احتجاجية للدفاع عن حماية البيئة خلال شهر أكتوبر، وبالرغم من العديد الحملات والفعاليات التضامنية إلا أن الدولة الايرلندية قررت المضي قدم في متابعتهم، حيث سيمثلا أمام المحكمة يوم 09 فبراير وقد يتعرضان لعقوبة سجنية تصل إلى سنة كاملة.

وقد نظم رفاقنا العديد من الفعاليات والأنشطة للاحتفال بعيد العمال وذلك بعد أن قام العديد من القادة النقابيين الإصلاحيين في العديد من البلدان بإلغاء تجمعات عيد العمال، بذريعة الاجراءات الاحترازية لمواجهة جائحة كورونا، وهكذا نظم وشارك مناضلو ومناضلات التيار الماركسي الأممي في احتجاجات عيد العمال في جميع قارات العالم.

نفس الأمر بالنسبة لليوم الأممي للمرأة العاملة، فقد رفع التيار الماركسي الأممي راية الدفاع عن الاشتراكية وعن الجذور الحقيقية لهذا اليوم، فنظموا عروضا ولقاءات لشرح الاضطهاد المزدوج الذي تعاني منه المرأة العاملة وشاركوا في كل المدن نظمت فيها مظاهرات نسائية.

وخلال العدوان الاسرائيلي على مدينة القدس وقطاع غزة شارك رفاقنا في جميع المظاهرات والاحتجاجات في كل بلدان العالم، ونظم رفاقنا في الشرق الأوسط حملة أممية للدفاع عن القضية الفلسطينية، كما نظموا حملة أممية للدفاع عن العمال المصريين.

إطلاق كتب منشورات

في أطار اهتمامه بالجانب النظري، أصدر التيار الماركسي الأممي كتب ومنشورات بمختلف لغات العالم خلال عام 2021، ففي شهر يوليوز تم اعادة إصدار مجلة "الدفاع عن الماركسية" والتي تغطي القضايا النظرية والسياسية و الحركة العمالية على حد سواء، حيث أصبحت تصدر بالعديد من اللغات.

وفي شهر تم الإعلان عن إصدار كتاب "تاريخ الفلسفة: منظور ماركسي" حيث استخدم فيه آلان وودز المادية التاريخية لتحليل تطور الفكر البشري على مر العصور، ليصبح هذا الكتاب أداة حيوية للثوريين الذين يناضلون للإطاحة بالرأسمالية اليوم.

لقاء السبت

دراسة النظرية الماركسية

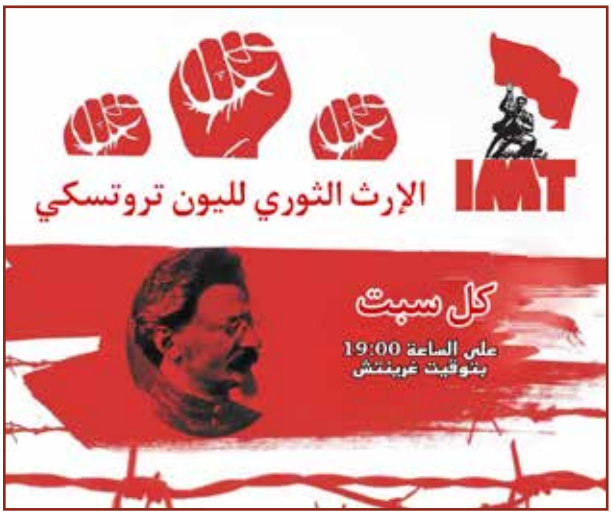

مباشرة بعد الإغلاق الذي فرض على إثر جائحة كوفيد 19، والذي تسبب في توقف العديد من الأنشطة الحضورية، قام التيار الماركسي الأممي بتحويل أنشطته ولقاءاته إلى لقاءات عن بعد عبر تقنية الفيديو، وهو الشيء الذي قام به مناضلو التيار في شمال إفريقيا والشرق الأوسط، حيث نظمنا عدة مواسم لدراسة النظرية الماركسية، وهكذا مكننا الإنترنت من التواصل مع العديد من الشباب الثوري في منطقتنا الملي بالحماس والثقة.

خصص الموسم الأول لدراسة مصادر الماركسية ومكوناتها، فنظمت عروض كل سبت حول المادية الديالكتيكية والمادية الجدلية والاقتصاد السياسي.

أما الموسم الثاني فتناول بالدراسة أهم الكتابات الماركسية الكلاسيكية، حيث قدم الرفاق قراءات في كتب ماركس وإنجلز ولينين وتروتسكي وروزا وكولونتاي.

الموسم الثالث كان تحت عنوان "دفاعا عن الماركسية" حيث تناولت العروض وجهة نظر الماركسية إزاء مختلف القضايا والمسائل والتيارات الفكرية المعاصرة (الاصلاحية، السياسات الهوياتية، العصبوية، ما بعد الحداثة، اللاسلطوية ...)

والآن نفتتح موسما رابعا لدراسة الماركسية والذي سيخصص للدفاع عن إرث ليون تروتسكي ومساهماته النظرية والعملية، وتعريف الشباب الثوري على النظرية الماركسية! وسيتخلل هذا الموسم لقاءات حول الأحداث الراهنة وموقف التيار الماركسي منها، كما ستخصص بعض اللقاءات لنقاش الجوانب الفنية (أفلام، موسيقى، أدب ...) من وجهة نظر ماركسية.

اذا كنت مهتما تواصل معنا عبر بريدنا الإلكتروني أو صفحاتنا في مواقع التواصل الاجتماعي:

saturday@marxy.com

marxy.lac@gmail.com

facebook.com/marxycom

twitter.com/marxycom

للتواصـل مـع التيـار الماركـسي الأممـي في الـشرق الأوسـط وشـمال إفريقيـا، يمكنكـم التواصـل معنـا عـلى العناويـن التاليـة:

البريد الإلكتروني لموقع ماركسي: contact@marxy.com

بريد موقع الدفاع عن الماركسية: contact@marxist.com

مجلة الشيوعية والحرية: communismliberty@marxy.com

زوروا مواقعنا: www.marxy.com و www.marxist.com/arabic.htm

وصفحاتنا على مواقع التواصل الاجتماعي:

فايسبوك: https://www.facebook.com/marxycom

تويتر: https://twitter.com/marxycom

اينستاغرام : https://www.instagram.com/marxy.imt

التيار الماركسي الأممي

الحرية والشيوعية

SCAN ME